روح الصيام

ومعانيه

تأليف الدكتور

عبد العزيز بن مصطفى كامل

الطبعة الثالثة

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

ح مجلة البيان ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

كامل، عبد العزيز مصطفى

روح الصيام ومعانيه، عبد العزيز مصطفى كامل

الرياض، ١٤٢٥هـ

١٤٠ ص؛ ١٧X ٢٤

ردمك: ٤ -٦ - ٩٤٤٩ - ٩٩٦٠

١ - الصوم.

أ - العنوان

ديوي ٢٥٢،٣

١٤٢٥/٥٧٢٧

رقم الإيداع: ١٤٢٥/٥٧٢٧

ردمك: ٤-٦-٩٤٤٩-٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحیم

المقدمـة

الحمد لله مقدِّر الأقدار، ومكوِّر النهار على الليل ومكوِّر الليل على النهار، سبحانه وتعالى من إله عظيم: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] اختار لنا من أيام دهرنا ما نتعرض فيه لنسائم رحمته، وعزائم مغفرته، في مواسم فاضلة يخلف بعضها بعضاً لنتوب إليه ونستغفره، ونذكر آلاءه فنشكره ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] والصلاة والسلام على إمام العابدين، وسيد الذاكرين الشاكرين، الذي علَّم العالمين كيف يرضون مولاهم، ويذللون دنياهم لتعمير أخـــراهم، فيغنمون الدين والدنيا معاً.

إنها مواسم تتكرر كل عام ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] ومن هذه المواسم المتعاقبة مع الأعوام، شهر الصيام، الذي عظَّمه الله وكرَّمه، وشرَّف صوَّامه وقوَّامه، وخصَّهم فيه من الأجور ما ليس لغيره من الشهور، حتى جعل أجر صائميه متجاوزاً العشرة أمثال، والسبعمائة ضعف، إلى ما يزيد على ذلك مما لا يحد ولا يُعد فقال عليه الصلاة والسلام، متحدثاً عن ربه ـ عز وجل ـ: (كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، قال الله ـ عز وجل ـ: إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به)(١).

فكل الأعمال يمكن أن تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلا الصيام، فإنه لا ينحصر تضعيفه عند حد، ولا يتوقف عند عدد. لأن الصيام تعبد بالصبر، وإنما.. ﴿يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقد يتضاعف أجر الصوم أضعافاً أخرى، لأسباب أخرى إضافة إلى تلك الخصوصية، ومنها: شرف المكان، أو شرف الزمان، أو شرف الإنسان، فأما

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١) (١٦٣).

شرف المكان فكأن تكون الطاعات ـ وبخاصة الصلوات ـ في أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال (المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، والمسجد الأقصىٰ) وأما شرف الزمان، فليس من الشهور أفضل من رمضان، غير أن أيام هذا الشهر ولياليه تتفاضل أيضاً، فالليالي الأواخر العشر هي أفضل الشهر والعمل الصالح فيها يتضاعف بشرف زمانها، وقد كان النبي ﷺ يجتهد فيها ما لا يجتهد في غيرها، وليلة القدر فيها، هي أفضل تلك العشر والعمل الصالح فيها يتضاعف حتىٰ يكون خيراً من عبادة ألف شهر.

وأما شرف الإنسان، فيكون بتقواه، فإنما ﴿يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، والتقوىٰ هي عماد الشرف وميزان الكرم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ولهذا فُضلت هذه الأمة علىٰ غيرها من الأمم لأنها أتقاها وأنقاها وأكثرها إيماناً واحتساباً ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

لقد ضاعف الله أجور العابدين من أمة محمد ﷺ علىٰ غيرهم من الأمم لفضلهم وشرفهم، فجعلهم السابقين برغم كونهم الآخرين (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة)[1]. فكلما ترقَّىٰ المرء في مدارج الشرف بالصعود في معارج التقوىٰ، زادت أجور أعماله الصالحة.

وقد شُرع الصيام لأجل ذلك الترقي في أعمال التقوىٰ، فكان رمضان مضماراً للمتسابقين فيها، وميداناً للمتنافسين علىٰ أجورها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فتحصيل التقوىٰ بنيَّاتها، وأعمالها، وأخلاقها، هو مقصد الصيام بنيَّاته وأعماله وأخلاقه.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٧٦) ومسلم (٨٥٥)، واللفظ له.

ولما كانت أعمال شهر الصيام كثيرة، وأصناف الطاعات فيه متنوعة، فقد احتاج هذا إلى روح دافعة للاستمرار في القربات، باستثمار الليالي والساعات في أيامه المعدودات، حتى لا تتصرم لحظاته الثمينة كغيرها من اللحظات في انشغال بالدنيا، وانغماس في ملهياتها وشهواتها.

ونحن في عصر كثرت فيه فتن الضراء والسراء، وكأنها أيام الصَّبْر، التي أخبر النبي ﷺ أن للعامل فيها أجر خمسين من أصحابه[(١)]، وإن تفاقم الأمور فيها، وتضاعف ضحايا الفتن في أيامها ولياليها، يذكّر بأحاديث الهَرْج، التي أخبر النبي ﷺ بكثرة وقوع القتل فيها في قوله عليه الصلاة والسلام: (يتقارب الزمان وينقص العمل ويُلقى الشح، ويكثر الهَرْج، قالوا: وما الهَرْج؟ قال القتل القتل)[(٢)]. فذهاب البركة في الأوقات، ونقصان عمل الطاعات وسلوكيات التمنع عن الخير والتهور في الشر، هي من سمات عصور الفتن، التي وصفها النبي ﷺ بـ (الهرج) ولهذا كان الاقبال على العبادة فيها له خصوصية تختلف عن غيرها، فقد صح عنه ﷺ قوله: (العبادة في الهَرْج كهجرة إليَّ)[(٣)].

ورمضان الكريم، مناسبة كبرى لتعويد النفس على العبادة في أزمة الفتن، مهما كانت صروف الزمن وتقلبات الأيام، فعسى أن ينال المتعبد بتلك النية أجر المهاجرين الأولين إلى دار هجرة سيد الأولين والآخرين ﷺ، كما دل الحديث.

وغاية هذا الكتاب، هي تذكير النفس والناس بروح الطاعات والعبادات في

---

(١) في قوله ﷺ: (من ورائكم أياماً، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم) قال عبد الله بن المبارك، وزادني غير عتبة: قيل يارسول الله أجر خمسين منا أو منهم، قال: (بل أجر خمسين منكم) أخرجه الترمذي (٢٩٨٤) وقال حسن غريب وأخرجه أبو داود (٣٧٧٨) وابن ماجه (٤٠٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٧)، (١٥٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٤٨).

هذا الشهر الكريم، لتنمو للطاعة فينا قابلية تتحول إلىٰ سجية في بقية شهور العام، وليس قصد الكتاب التوسع في الأحكام والمسائل والفتاوىٰ، فتلك أمور أخرىٰ لها مجالاتها ورجالاتها، وإنما القصد إيراد المرغبات، واستعراض المرهبات، التي تعين علىٰ إعادة الروح لأعمال العبادة حتىٰ لا تتحول إلىٰ عادة، تُفقدنا الكثير من معاني العبودية المطلوبة في صلاتنا وصيامنا ونسكنا وسائر أمور حياتنا ومعادنا، ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

فلكي تستقيم العبادة مع مقتضىٰ العبودية، فلا بد من استرواح روحها واستحضار معانيها. ولهذا جاء هذا الكتاب (روح الصيام ومعانيه) بداية سير نحو تلك الغاية، نسأل الله بمنه وكرمه التوفيق فيها، وفيما يليها من دراسات أخرىٰ عن (روح العبادات ومعانيها).

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف

غرة شعبان ١٤٢٥هـ

الموافق للخامس عشر من شهر سبتمبر ٢٠٠٤م

(١)
استقبالك (رمضان)

لا شك أن الإنسان إذا عمل عملاً، أو زار مكاناً، أو اجتمع إلىٰ شخص، واستشعر أثناء ذلك أنه لن يعود إليه مرة أخرىٰ؛ فإن هذا الشعور يضاعف في نفسه شعوراً آخر بضرورة اغتنام تلك الفرصة التي قد لا تتكرر، ولهذا فإن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لما استمعوا من النبي ﷺ إلىٰ موعظة ذرفت منها العيون، ووجِلت منها القلوب، واستشعروا عمقها وشمولها، قالوا: (كأنها موعظة مودِّع، فأوصنا)[١]، فاغتنموا مشاعر الوداع لاستجماع وصية قد لا تتكرر مناسبتها.

ولما حج النبي ﷺ حجة الوداع، وأحس أنه لن يلقىٰ أمته في مثل ذلك الجمع في الدنيا مرة أخرىٰ، جمع لهم من النصيحة في كلمات، ما تفرق خلال دعوته في عقود وسنوات قائلاً: (لعلىٰ لا ألقاكم بعد يومي هذا)[٢]. إن هذا يدل علىٰ أن استشعار معنىٰ الوداع يعطي دافعاً قد لا يتوافر في عدمه، ومن هنا ندرك السر في نصيحته ﷺ لأحد أصحابه عندما قال له: (إذا قمت في صلاتك، فصل صلاة مودِّع)[٣].

تعالوا نتصور... رجلاً مخلصاً يصلي ركعات يعلم أنه يودِّع الدنيا بها، كيف ستكون في تمامها... في خشوعها... في شدة إخلاصها وصدق دعائها..؟

إن الرسول ﷺ يعلمنا بهذا الهَدْي ـ والله أعلم ـ كيف نتخلص من آفة تحوُّل العبادة إلىٰ عادة، فلماذا لا نستحضر روح الوداع في عباداتنا كلها، خاصة وأننا إلىٰ وداع في كل حال؟ إن رمضان يحل علينا ضيفاً مضيافاً، يكرمنا إذا أكرمناه،

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه في المقدمة (٤٢، ٤٤)، وأحمد (١٦٦٩٤) والدارمي في المقدمة (٩٥) جمعيهم عن العرباض بن سارية مرفوعاً، وصححه الألباني (صحيح أبي داود (٣٨٥).

(٢) أخرجه الدارمي رقم (٢٢٩).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٩٨٧)، وابن ماجة (٤١٧١)، وحسنه الألباني بمجموع طرقه كما في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٥٠)، وانظر السلسلة الصحيحة (٤٠١، ١٩١٤).

فتحل بحلوله البركات والخيرات، يُقدِم علينا، فيقدِّم إلينا أصنافاً من الإتحافات والنفحات. . ضيف لكنه مُضيف، وربما يكون الواحد منا في ضيافته للمرة الأخيرة. . ! أو ربما ينزل هو في ضيافة غيرنا بعد أعمار قصيرة. . فهلا أكرمنا ضيفنا. . ؟! وهلا تعرضنا لنفحات مضيفنا. . !

إن استقبالنا لرمضان، استقبال المودعين المغتنمين، لا ينافي استقبالنا له ونحن فرحين مستبشرين، فقد كان النبي ﷺ يبشر أصحابه برمضان، بشرىٰ التشوق لبركاته، والتشوف للرحمات في كل ساعاته وأوقاته، فيقول لهم: (قد جاءكم رمضان، شهر مبارك، كتب الله عليكم صيامه، فيه تفتح أبواب الجنان، وتغلق أبواب الجحيم، وتغلُّ فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرم خيرها فقد حرم)[(١)] . . . أعد التأمل في هذه الكلمات المملوءة بالمعاني، وتخيَّل أن فرصة شهرٍ هذه صفاته وتلك نفحاته؛ لاحت لك فلم تغتنمها علىٰ أمل أنها ستعود وتعود، ولم تكن عبادتك فيها عبادة مودع حتىٰ فاتتك أوقاتها وتجاوزتك رحماتها. ! ألن تستحق وقتها أن توصف بأنك محروم؟!

لقد كان سلفنا الكرام يترقبون الشهر متمنين تمامه لإتمام صيامه وقيامه متقلبين في أيامه بين الطاعات والعبادات، فكان من دعائهم ـ كما قال يحيىٰ بن أبي كثير: «اللهم سلِّمنا إلىٰ رمضان، وسلِّم لنا رمضان، وتسلَّمه منا متقبلاً». وكانوا ـ كما قال معلىٰ بن الفضل ـ يدعون الله تعالىٰ، ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، ثم يدعونه ستة أشهر أن يتقبله منهم[(٢)]. إن هذا الاستعداد الصادق لاستقبال الشهر وحسن ضيافته، يدل علىٰ قلوب حية، تعي عن الله كلماته في تعظيم الشهر، وتحمل عن الرسول ﷺ هديه فيه. يقول ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «بلوغ شهر رمضان وصيامه نعمة عظيمة علىٰ من أقدره الله عليه، ويدل عليه حديث الثلاثة الذين استشهد اثنان منهم، ثم مات الثالث علىٰ فراشه بعدهما، فرؤي في النوم سابقاً لهما، فقال النبي ﷺ: (أليس صلىٰ بعدهما كذا وكذا صلاة، وأدرك رمضان فصامه، فوالذي

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٩٢١٣)، والنسائي (٢١٠٦) وهو صحيح لغيره كما في تمام المنة للألباني (٣٩٥) وأصله في الصحيحين. .

(٢) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف لابن رجب الحنبلي، ص ٢٣٥، مؤسسة الرسالة.

نفسي بيده، إن بينهما لأبعد مما بين السماء والأرض»[١].

أتي رمضان مـــزرعة العبـــاد لتطهير القلوب من الفســـاد
فأدِّ حقـــوقه قولاً وفعـــلاً وزادك فاتخـــــذه للمعـــاد
فمن زرع الحبوب وما سقاها تأوه نادمـــاً يــــوم الحصـــاد

تعال معنا ـ أيها القارئ الحبيب ـ نستحضر أحاسيس صيام المودعين، لعلنا نَدَع بها دَعَة تتلف أيامنا، وعِدَة من الأماني تضعف إيماننا، تعال نخص هذا الشهر الكريم بمزيد اعتناء وكأننا نصومه صيام مودع! تعالوا نقف مع أنفسنا هذه الوقفات لإخراج صيامنا من إلف العادة إلىٰ روح العبادة:

* نصوم رمضان في كل عام، وهَمُّ أكثرنا أن يبرئ الذمة، ويؤدي الفريضة. . . فليكن همنا لهذا العام تحقيق ـ نعم تحقيق ـ معنىٰ صومه (إيماناً واحتساباً) ليغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا. . . . ، وهي كثيرة.

* نحرص كل عام علىٰ ختم القرآن مرات عديدة. . فلتكن إحدىٰ ختمات هذا العام، ختمة بتدبر وتأمل في معانيه، بنية إقامة حدوده قبل سرد حروفه.

* يتزايد حرصنا في أوائل الشهر علىٰ عدم تضييع الجماعة مع الإمام، فليكن حرصنا هذا العام طوال الشهر علىٰ إدراك تكبيرة الإحرام.

* نخص رمضان بمزيد من التوسعة علىٰ النفس والأهل من أطايب الدنيا الدانية، فليتسع ذلك للتوسعة عليهم بأغذية الروح العالية، في كتاب يُقرأ، أو شريط يُسمع، أو لقاء يفيد.

* إذا أدخلنا السرور علىٰ أسرنا بهذا وذاك، فلنوسع الدائرة هذا العام فندخل السرور علىٰ أُسر أخرىٰ، أَسَرَتْ بعضها الأسِرَّة أو الأسوار، في قيد مرض، أو كيد عدو.

* نتصدق كل عام بقصد مساعدة المحتاجين، فلنجعل من مقاصدنا هذا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٣٨٤)، وابن ماجة (٣٩٢٥)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣١٧١).

العام، مساعدة أنفسنا التي بين أضلعنا في حاجتها إلىٰ التخلص من نار الخطيئة، بالإخلاص في الصدقات بنية مغفرة كل زلة وإطفاء كل خطيئة.

* نحرص علىٰ العمرة في رمضان لفضلها، متطلعين لما بعدها، فلنجعل عمرتنا هذا العام - إذا أذن الله - لعمرنا الباقي، فقد يكون آخر العهد بالبيت ذاك الطواف.

* نحرص وإياك علىٰ اكتساب العمل النافع لأنفسنا، فليكن النفع متعدياً هذا العام، بنصائح تُسدىٰ، أو كتب تُهدىٰ، لعل الله يكتب في صحائفنا حسنات قوم دللناهم علىٰ الخير فـ (الدال علىٰ الخير كفاعله)(١).

* لنفسك وأهلك من دعائك النصيب الأوفىٰ، فلتتخل عن هذا (البخل) في شهر الكرم، فهناك الملايين من أهليك المسلمين يحتاجون إلىٰ نصيب من دعائك الذي تؤمِّن عليه الملائكة قائلين: (ولك بمثل)(٢).

* الجود محمود في رمضان، وأنت أهله ببذلك القليل والكثير، فليمتد جودك هذا العام إلىٰ الإحسان لمن أساء، وصلة من قطع، وإعطاء من منع.

* لنكف عن الاعتكاف إلىٰ الناس، ونكتفي بالعكوف مع النفس لمحاسبتها، فلربما يفجؤنا الموت فنُعكف بالقبر، فتحاسب أنفسنا فيه قبل أن نحاسبها.

* نحب التعبد بتفطير الصائمين، فلنجرد هذه الطاعة من حب المحمدة، أو دفع المذمة، لأن البذل بالرياء لا يثيب صاحبه، بل يصيب مقاتله؛ إذ يعطي ولا يأخذ، ويغرم ولا يغنم.

* قدر رمضان يتضاعف في ليلة القدر، فهل قدَّرت في نفسك أنها ربما فاتتك في أعوام خالية؟! فاغتنمها هذه المرة، فقد لا تدركها في السنوات التالية.

(اللهم بارك لنا في رمضان وتقبل حسن استقبالنا له وأعنا على صيامه وقيامه واجعلنا فيه من الأتقياء الأنقياء العتقاء من النار... آمين)

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٠)، وأحمد في مسنده (٢١٣٢٦)، (٢١٩٤٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٦٠).

(٢) جزء من حديث: (دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل) أخرجه مسلم (٤٩١٤).

(٢)
صيامك في رمضان

مع ضرورة اهتمام الصائم بروح الصيام ومعانيه، فمن المهم أن لا يترك الاعتناء بأحكامه وأدلته وما يعين على حسن الاتباع فيه، فكما يفتقد كثير من الناس الروح الدافعه لإحياء مقاصد تلك الفريضة، فإن كثيراً منهم يفتقرون إلى معرفة الأحكام التي تصحح تأديتها، وتقوِّم إتمامها.

وهاك ـ أخي الصائم ـ أهم تلك الأحكام، مع ما يظهر فيها من حِكَم:

أولاً: يكفي في ثبوت دخول الشهر الكريم، أن يخبر برؤية هلاله أو يشهد عليها واحد من المسلمين، وهذا من عدم التكلُّف في العبادة، فقد كان رسول الله ﷺ يصوم ويأمر المسلمين بالصيام، إذا رأىٰ هلال رمضان واحد منهم، وتحدث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن ذلك فقال: (تراءىٰ الناس الهلال فأخبرت النبي ﷺ أني رأيته، فصام وأمر الناس بصيامه)[١]. والاكتفاء بخبر الواحد في ثبوت الرؤية هو مذهب الشافعي[٢] والحنابلة[٣] وابن حزم[٤]، وهو اختيار ابن تيمية[٥] وابن القيم[٦] (رحمهم الله جميعاً).

ثانياً: رمضان شهر منفرد، وهو كامل في الأجر وإن نقص في العدد، ولتمييزه عما قبله وعما بعده، شُرع الإفطار قبله بيوم أو يومين، كما أن صيام يوم العيد بعده حرام، وقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

(١) أخرجه أبو داود (٢٣٤٢) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٩٠٨).
(٢) انظر: روضة الطالبين (٢/ ٢٠٧).
(٣) انظر: الفروع (٣/ ١٤).
(٤) انظر: المحلي (٤/ ٣٧٣).
(٥) انظر: مجموع الفتاوىٰ، (٢٥/ ١٠٥).
(٦) انظر: زاد المعاد (٢/ ٣٨).

(لا تَقَدَّموا رمضان بصوم يوم ولا يومين، إلا رجل كان يصوم صوماً فليصمه)[١]، بل لقد كان النبي ﷺ يأمر بترك الصيام قبله بأسبوعين، حتى يقبل الصائمون على صيامه بتشوق، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (إذا انتصف شعبان فلا تصوموا)[٢].

ثالثاً: مع عِظَم أجر الصيام؛ فإن رحمة الله اقتضت ألا يوجبه إلا على كل عاقل بالغ قادر، فلا يجب على فاقد العقل ولا على غير البالغ، ولا على العاجز عن الصيام لمرض أو شيخوخة، على أن يُطعم مكان كل يوم مسكيناً. وإعفاء غير القادرين على الصيام؛ لا يعفيهم عن إجلال الشهر وعدم الإخلال بحرمته وكرامته، واستغلال أوقاته فيما يستطاع من طاعات. أما غير المسلم، وغير العاقل لما يفعل، وكذا المرأة في حال حيضها أو نفاسها؛ فإن الصيام من هؤلاء غير صحيح وغير مثاب عليه، فغير المسلم وغير العاقل لا صحة لصومهما لفقدهما شرط صحة النية، وأما المرأة في حيضها أو نفاسها فبوسعها أن تكثر في شهر الصوم من أعمال الطاعات الأخرى غير الصيام والصلاة، كاستماع القرآن وكذا الإكثار من الذكر والتسبيح والاستغفار والدعاء، مع الإكثار من أعمال البر والصدقة.

رابعاً: لأن الصيام جوهره الاحتساب لله، فلا بد من تجديد النية في ذلك، ولهذا اشترطت تلك النية في كل ليلة، حتى يحصل القبول، فعن حفصة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: (من لم يُبيِّت الصيام من الليل فلا صيام له)[٣]، ويكفي في النية هنا العموم، فما لم ينو المرء الإفطار من ليلته، فهو على نيته العامة في مواصلة الصيام كل ليلة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩١٤)، ومسلم (١٠٨٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٣٣٧)، وصححه الألباني في صحيح أبو داود (٢٠٤٩).

(٣) أخرجه النسائي (٢٣٣٤)، واللفظ له، وأحمد (٣٥٩١٨)، وأبو داود (٢٤٥٤)، والترمذي (٧٣٠) وابن ماجة (١٧٠٠) وصححه الألباني في الإرواء (٩١٤).

خامساً: من بيَّت نية الصيام، فواجبه لكي يصح صومه؛ أن يمسك عن المفطرات، من طلوع الفجر الثاني إلىٰ غروب الشمس، فقد قال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ويوجب هذا الإمساكُ علىٰ الصائم ألا يجرح إمساكه بشيء من المفطرات الست المتفق عليها، وهي:

١ ـ الأكل والشرب عمداً، إما بمأكول أو مشروب معهود.

٢ ـ مافي حكم الأكل والشرب كقطرة الأنف التي تصل إلىٰ الحلق، فإنها تأخذ حكم المبالغة في الاستنشاق حتىٰ يبلغ الماء الحلق، وهو ما يفطِّر الصائم، لقوله ﷺ: (وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً)[١] ومن المفطرات أيضاً: الإبر المغذية، فهي في معنىٰ الأكل والشرب، لأنها تقوم مقامهما، فتأخذ حكمهما، ومما هو في معنىٰ الأكل والشرب أيضاً: التزود بالدم عن طريق الأنابيب، لأن الدم هو غاية الأكل والشرب فكان بمعناهما. أما ما ليس في معنىٰ الأكل والشرب، كالقطرة في العين أو الأذن، وكذا الكحل وشم الطيب، والإبر غير المغذية، وأنواع اللبوس التي يتداوىٰ بها المرضىٰ، فهي لا تفطر، لأنها ليست أكلاً ولا شرباً وليست في معناهما، وكذلك يترجح في الحجامة أنها ليست من المفطرات، فحديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (احتجم رسول الله ﷺ وهو صائم)[٢]، يعد ناسخاً لحديث ثوبان ـ رضي الله عنه ـ (أفطر الحاجم والمحجوم)[٣]، ويشهد لذلك حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال:

---

(١) أخرجه الترمذي (٧٨٨) واللفظ له، وأبو داود (١٤٢)، والنسائي (١١٤) وابن ماجة (٤٠٧) وأحمد (١٥٩٤٥) بنحوه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٣٩).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٤٠١) والترمذي (٧٧٤) والنسائي في السنن الكبرىٰ (٣١٦٠) وأبو داود (٢٣٦٧) وابن ماجة (١٦٨٠) وأحمد (١٦٦٦٣) من حديث ثوبان، وقال النووي: إسناده صحيح (المجموع/ ٦/ ٣٤٩) وصححه الألباني في الإرواء (٩٣١).

(رخص رسول الله ﷺ في القبلة والحجامة للصائم)[١].

٣ـ الجماع، مفطر بالإجماع، وكذلك إنزال المني في يقظة عمداً، بمباشرة أو استمناء أو غيره، لأن ذلك في معنىٰ الجماع.

٥ ـ الاستقاءة المتعمدة، وهي مفطرة بالإجماع بخلاف ما لو غلب عليه القيء، فإنه لا يفطر، لحديث رسول الله ﷺ: (من ذرعه القيء فليس عليه قضاء، ومن استقاء فليقض)[٢].

٦ـ خروج دم الحيض أو النفاس، يفطر بالإجماع[٣]، ولو وجد ذلك في آخر أوقات النهار، لحديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (أليس إذا حاضت لم تُصَلِّ ولم تَصُم)[٤].

سادساً: من أفطر ناسياً أو مخطئاً، فإن صيامه صحيح ولا يجب عليه القضاء، فالنسيان معروف، وإن أكثر الناسي من الأكل والشرب، لقول الرسول ﷺ (من أكل أو شرب ناسياً وهو صائم فليُتم صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه)[٥]، والمخطئ: كحال من ظن أن الفجر لم يطلع فأكل بعد طلوعه، أو ظن أن الشمس غربت فأكل قبل أن تغرب. أما من أفطر متعمداً من غير عذر، فهو آثم إثماً عظيماً، وتجب عليه التوبة إلىٰ الله، ثم قضاء ما أفطره من أيام، كما ذهب إليه الجمهور.

سابعاً: إذا حاضت المرأة أو نفست في رمضان، حرُم عليها الصيام، ووجب عليها القضاء بعد الطهر، فعن مُعاذة أنها سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ، قالت: ما بال الحائض تقضي الصوم ولاتقضي الصلاة؟ فقالت عائشة: أَحَرُورية أنت؟

---

(١) أخرجه الدارقطني (٢/ ٣٩٧) وصححه الألباني في حقيقة الصيام(٧٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٠٠٨٥) وأبو داود (٢٣٨٠) والترمذي (٧٢٠) وابن ماجه (١٦٧٦)، صححه الألباني في إرواء الغليل (٩٣٠).

(٣) نقل الاجماع في هذه المسائل الامام النووي، انظر: المجموع (٦/ ٢٥٤)، (٦/ ٣٣١).

(٤) أخرجه البخاري (١٩٥١)، ومسلم (٨٨٩).

(٥) رواه البخاري (٦٦٦٩).

قالت: لست بحرورية، ولكني أسأل، فقالت عائشة: (كان يصيبنا ذلك، فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة)(١).

ثامناً: من سافر فقد أباح الله له الفطر، ولو لم يكن في سفر مشقة، قال - تعالى -: ﴿**وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [**البقرة**: ١٨٥]، ولكن جواز الفطر في السفر لا يحرِّم الصيام فيه لمن أراد أن يصوم، فقد قال حمزة بن عمرو الأسلمي لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله: أجد بي قوة على الصيام في السفر، فهل عليَّ جُناح»؟ فقال رسول الله ﷺ (هي رخصة من الله، فمن أخذ بها فحسن، ومن أحب أن يصوم فلا جُناح عليه)(٢).

تاسعاً: من جامع أهله في نهار رمضان، فقد أفطر وأثِم، وعليه أن يقضي اليوم الذي أفطر فيه، ويؤدي كفارة عن ذلك وهي عتق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً، لحديث أبي هريرة بذلك في الصحيحين(٣).

عاشراً: من شق عليه الصوم في أيام معينة، فيجوز له الفطر، بل قد يجب إذا تحقق الضرر بالصيام، فقد رفع الله - تعالى - عن هذه الأمة الحرج ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [**الحج**: ٧٨]، ومن أفطر للمشقة الشديدة، يقضي ما أفطره من الأيام إذا عوفي، والحامل والمرضع تأخذان حكم المتضرر بالصيام، إذا خافتا على نفسيهما أو ولديهما لقوله ﷺ: (إن الله تعالى وضع عن المسافر

---

(١) رواه مسلم (٣٣٥) ومعنى حرورية: أرادت الانكار عليها أن تكون من أرض حروراء التي ينتسب إليها الخوارج الذين كان بعضهم يرى - لفرط تعمقه في الدين - أن على الحائض أن تقضي الصلاة!

(٢) رواه مسلم، كتاب الصيام رقم (١٨٩١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٨٧)، (٦١٦٤) ومسلم (١١١١).

الصوم وشطر الصلاة وعن الحامل أو المرضع الصوم)[١].

حادي عشر: من عجز عن الصيام بشكل دائم، كالشيخ الكبير والمرأة العجوز، والمريض مرضاً لا يُرجى برؤه، لا يجب عليهم الصوم، ولكن يجب عليهم أن يطعموا مكان كل يوم مسكيناً، فقد قرأ عبد الله ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله - تعالى -: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]. وقال: «ليست بمنسوخة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة، لايستطيعان أن يصوما، فليطعما مكان كل يوم مسكيناً»، ولكن إذا بلغ الشيخ أو الشيخة من العمر مرحلة الهذيان وعدم التمييز، فلا يجب عليهما الصيام ولا الإطعام، لسقوط التكليف عنهما.

(اللهم فقهنا في ديننا، وعلمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً... آمين)

---

(١) رواه الترمذي (٧١٥) وقال: والعمل على هذا عند أهل العلم.

(٣)
قيامك في رمضان

قيام الليل (شرف المؤمن) هذا ما تنزل به أمين السماء جبريل ـ عليه السلام ـ علىٰ أمين الأرض محمد عليه الصلاة والسلام، حيث أتي جبريل إلىٰ رسول الله ﷺ: فقال: (يا محمد: عش ما شئت فإنك ميتٌ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعِزُّه استغناؤه عن الناس)(١). وقيام ليل رمضان ليس ككل ليل، فقيام ليله شرف علىٰ شرف.

وقد كان رسول الله ﷺ يحتفي بالقرآن في ليالي رمضان، ويحتفي جبريل به وبالقرآن في ليالي الشهر الكريم، فيأتيه فيدارسه فيه، كما جاء في الحديث: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن) وفي نهاية الحديث قال: (وذلك كل ليلة)(٢).

وكان السلف أيضاً يحتفون بالقرآن في ليالي رمضان، فيقومون به فيها مالا يقومون في غيرها، فكان بعضهم يختم القرآن كله في ليالي الشهر، وبعضهم كان يختمه في كل عشر، وبعضهم في كل سبع، وبعضهم في كل ثلاث(٣).

ولقيام ليالي رمضان خصوصية عن بقية ليالي العام، لقوله ﷺ: (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)(٤)، وقيامه إيماناً واحتساباً هو إحياء لياليه بالعبادة والقيام، تصديقاً ورجاء للثواب، وإخلاصاً في التقرب.

وقد قام النبي ﷺ بأصحابه بعض ليالي رمضان، ثم ترك ذلك إشفاقاً علىٰ

---

(١) أورده الألباني في السلسلة الصحيحة وقال: حسن لشواهده (١٩٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) وظائف رمضان، ص ٤٣.

(٤) أخرجه البخاري (٣٧)، (٢٠٠٩)، ومسلم (٧٥٩).

الأمة من فرض القيام عليها وقال (خشيت أن تفرض عليكم)[١].

ولما أُمِنَ هذا الجانب بوفاة النبي ﷺ وانقطاع الوحي؛ أمر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أُبيَّ بن كعب وتميماً الداري أن يقوما بالناس في شهر رمضان، فكان القارئ يقرأ بالمئين[٢] في الركعة، حتى كانوا يعتمدون على العِصي من طول القيام، وما كانوا ينصرفون إلا عند الفجر.

وهذا بالطبع يتأتى ممن يتحملون ذلك من أهل الهمم العالية التي تقاصر عنها الناس في زماننا، فالأمر في ذلك يرجع إلى طاقة الناس - مثلما - بيَّن الإمام أحمد - رحمه الله - فعندما سُئل عن الإطالة التي تستغرق الليل قال: «في هذا مشقة على الناس ولا سيما في الليالي القصار، وإنما الأمر على ما يتحمله الناس»[٣].

وقد قال الإمام أحمد لبعض أصحابه - وكان يصلي بهم في رمضان -: «هؤلاء قوم ضعفاء» يريد الرفق بهم في الإطالة، فختم لهم صاحبه في ليلة سبع وعشرين[٤].

ودل هذا على أن الختم في سبع وعشرين ليلة، أو في ثلاثين ليلة، يتناسب مع (الضعفاء)، ولكن الضعف في زماننا تضاعف حتى وجدنا من يطالب الإمام بألا يزيد عن بضع آيات في الركعة، فإذا صلى معه بعضهم هذا البضع؛ انصرف بعد ركعتين أو أربع، مؤثراً شويئات من لعاعات الدنيا وزخارفها الزائلة، مع أن هؤلاء المصروفين لو صبروا مع الإمام حتى يُتم قيامه، لكتب لهم ثواب قيام كل تلك الليلة كاملة، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ، فقد قام بأصحابه مرة إلى ثلث الليل، ومرة إلى نصف الليل، فقالوا: لو نفلتنا بقية ليلتنا؟ فقال: (إن الرجل إذا

(١) أخرجه البخاري (٩٢٤) ومسلم (٧٦١).
(٢) المئين هي: السورة التي تحوي مائة آية أو نحوها.
(٣) المصدر السابق، ص ٣٩.
(٤) المصدر السابق، ص ٣٩.

صلىٰ مع الإمام حتىٰ ينصرف، كتب له بقية ليلته)[١].

وهذه الفضيلة لا تكون إلا لمن قام مع الإمام حتىٰ يتم قيامه. قال ابن رجب تعليقاً علىٰ ذلك الحديث: «دل علىٰ أن قيام ثلث الليل أو نصفه يكتب به قيام ليلة، لكن مع الإمام. وكان الإمام أحمد يأخذ بهذا الحديث، ولا ينصرف حتىٰ ينصرف الإمام»[٢].

إن قيام رمضان من روح الصيام، وإذا كان الأئمة يرشدون إلىٰ الرفق بالناس في إتمامه، فإنهم لا يحجرون علىٰ من صلىٰ وحده فأطال، أو من صلىٰ بغيره فأطاعوه وواطأوه في الاسترسال. قال ابن رجب: «ومن أراد أن يزيد القراءة ويطيل، وكان يصلي لنفسه فليطوِّل ما شاء، وكذلك من صلىٰ بجماعة يرضون بصلاته»[٣].

وإن للقيام روحاً، كما أن للصيام روحاً، وروح القيام هي الخشوع والخضوع والإخبات، وقد كان ﷺ في صلاة القيام (لايمر بآية تخويف إلا وقف وتعوَّذ، ولا بآية رحمة إلا وقف وسأل)[٤] وكثير من الأئمة في التراويح يصلون صلاة لا يعقلونها، ولا يطمئنون في ركوعها ولا في سجودها، مع أن الطمأنينة ركن فيها، والخشوع وحضور القلب بين يدي الله هو مقصودها، ومثل هذا لا يحصل في العجلة، «فتقصير القراءة مع الخشوع في الركوع والسجود أولىٰ من طول القراءة مع العجلة المكروهة، وصلاة عشر ركعات مع طول القراءة والطمأنينة، أولىٰ من عشرين ركعة مع العجلة المكروهة، لأن لُبَّ الصلاة وروحها هو إقبال القلب علىٰ الله عز وجل، ورب قليل خير من كثير، وكذلك ترتيل القراءة أفضل من السرعة، والسرعة المباحة هي التي لا يحصل معها إسقاط شيء من الحروف، فإن أسقط بعض الحروف لأجل السرعة لم يجز ذلك له، ويُنهىٰ عنه. وأما إذا قرأ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٩١٠)، وأبو داود (١٣٧٥)، والترمذي وحسنه (٨٠٦) والنسائي (٣/ ٨٣-٨٤)، وابن ماجة (١٣٢٧) وصححه الألباني في إرواء الغليل (٤٤٧).
(٢) وظائف رمضان، ص ٤٠.
(٣) المصدر السابق.
(٤) أخرجه أحمد (٢٣٤٦٠) والنسائي (١١٣٢) وصححه الألباني في صحيح النسائي (١٠٨٥).

قراءة بينة ينتفع بها المصلون خلفه فحسن»[١].

أخي الصائم القائم. استحضر عند قيامك، أنك تمتثل لقول الله ـ تعالىٰ ـ ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فالقيام وحده في الصلاة لا يكفي ما لم يكن القلب قانتاً لله فيه، وتذكر وأنت تطيل القيام بين يدي الله، وقوف الناس في القيامة في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وقيامك يوم قيامتك سيقصر ويسهل بمقدار طول قيامك لله في حياتك.

إن الله ـ تعالىٰ ـ ينزل إذا مضىٰ شطر الليل أو ثلثاه إلىٰ سماء الدنيا ـ كما ثبت في الحديث ـ فيقول: (هل من سائل يُعطىٰ، هل من داع يُستجاب له، هل من مستغفر يُغفر له، حتىٰ ينفجر الصبح)[٢].

وليل المسلمين ـ أخي الصائم ـ تحول في عصرنا إلىٰ نهار، بعضه عمار، وأكثره دمار، فلا تفوِّت ساعات التنزل الإلهي في ليالي رمضان، كفواتها في بقية ليالي العام، وسل نفسك أخي؛ أين ستكون في ثلث الليل هذا.. هل في لقاء مع الله؟ أم في نوم عن مناجاة الله؟ أم في سهر علىٰ معصية الله؟!

لقد ذُكر عند النبي ﷺ رجل نام حتىٰ أصبح، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه)[٣] فإذا كان هذا فعل الشيطان فيمن نام عن الطاعة، فما هو فعله فيمن سهر علىٰ المعصية؟! وإذا كان البعض يستثقل السهر في عبادة الله، فما بال هذا السهر يطول في الغفلة عن الله؟!

قيل لابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ما نستطيع قيام الليل!» قال: «أقعدتكم ذنوبكم»، وقال الفضيل بن عياض: «إذا لم تقدر علىٰ قيام الليل وصيام النهار، فاعلم أنك محروم، قيدتك خطيئتك».

(اللهم أحسن قيامنا بين يديك في الدنيا لِحُسن قيامنا يوم العرض عليك في الآخرة، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة... آمين)

---

(١) وظائف رمضان، ص ٤٢.

(٢) أخرجه مسلم (٧٥٨).

(٣) اخرجه البخاري (٣٢٧٠) ومسلم (٧٧٤).

(٤)

إخلاصك في رمضان

تجريد نيتك لله، وتوحيد وجهتك إلىٰ الله لتحقيق عبوديتك له، ابتغاءً لمرضاته وإرادة لثوابه - عز وجل - كلها معانٍ تدل علىٰ الإخلاص المشترط في الأعمال، فالإخلاص كلمة عظيمة ومعنىً كبير لا يُقبل العمل بدونه، بل يشترط في كل عمل أن يكون قائماً علىٰ الإخلاص والاتباع، فقد قال - تعالىٰ -: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢] قال الفضيل بن عياض في معنىٰ (أحسن عملاً): «أخلصه وأصوبه، فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتىٰ يكون خالصاً صواباً. . .» والخالص إذا كان لله - عز وجل -، والصواب إذا كان علىٰ السُّنة (١).

فلا بد من توجيه إرادتنا في العمل نحو الإخلاص لله تعالىٰ بنية التقرب إليه واحتساب الأجر عليه، فإرادة الله والدار الآخرة، هي أجلُّ أعمال القلوب، كما أن إرادة غير الله - من دناءات الدنيا الدانية - هي أقبح أعمال القلوب، قال - تعالىٰ -: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ - ١٦]، وقال - عز من قائل -: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

إن هذه الآيات وأمثالها، تدل علىٰ أن الأصل في كل عمل هو تلك الإرادة

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ٣٦٩).

أو النية، حيث تحسب الأعمال بها وتنصب الموازين لأجلها، قال ﷺ في الحديث المتواتر المشهور: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله، فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه)[١].

إن العمل مهما كان قليلاً؛ فإن الإنسان يُجازىٰ به، ويضاعف أجره عليه بإخلاص النية كما قال - عليه الصلاة والسلام -، (إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُثبت عليها، حتىٰ اللقمة تجعلها في في امرأتك)[٢]، وأما الأعمال الكبيرة، فإن النوايا أيضاً هي التي ترفعها إلىٰ عالي الدرجات أو تنزل بها إلىٰ سافل الدركات، فقد يكون العمل عظيماً، ولكن ترك الإخلاص وتجافيه، يجعل هلكة الإنسان فيه، وقد قال رسول الله ﷺ: (إن أول من يقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتي به، فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فماعملت فيها، قال قاتلت فيك حتىٰ استُشهدت، قال: كذبتَ، ولكنك قاتلت ليقال جريء، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها، قال تعلَّمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها، قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك أنفقت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب علىٰ وجهه ثم ألقي في النار)[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (١).
(٢) أخرجه البخاري (٥٦).
(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

لا تظن - أخي الصائم - أخي القائم - أن الإخلاص أمر هيِّن، فإن معوَّل الأعمال عليه، ومصائر العباد راجعة إليه، فمن عالج النية نجا، ومن تعجلها لدنياه هلك، قال سهل التَسْتُري: «ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص، لأن النفس ليس لها فيه نصيب»، وقال يوسف بن الحسين الرازي: «أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم اجتهدت في إسقاط الرياء عن قلبي، وكأنه ينبت فيه على لون آخر» وكان من دعاء مُطَرِّف بن عبد الله: «اللهم إني استغفرك مما تبت إليك منه، ثم عدت فيه، واستغفرك مما جعلته لك على نفسي ثم لم أفِ لك به، واستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك، فخالط قلبي منه ماقد علمت». وقال سفيان الثوري: «ما عالجت شيئاً أشد عليَّ من نيتي، لأنها تتقلب عليَّ»، وقال يوسف بن أسباط: «تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد»[1].

لقد كانوا يكابدون قلوبهم في القليل والكثير، مخافة أن يذهب عدم الإخلاص بالقليل والكثير. قيل لنافع بن جبير: «ألا تشهد الجنازة»؟ فقال لمن دعاه: «كما أنت حتى أنوي»، قال: ففكر هنيهة ثم قال: «امض!»[2].

لا تتعجب من هذه اليقظة، فقد عرف القوم أن استحضار روح الإخلاص لله في العمل يضاعف الأجر، وقد كانوا، أحرص ما يكونون على هذا الاستثمار لزيادة الأجور، قال يحيى بن كثير: «تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل» وقال داوود الطائي: «رأيت الخير كله يجمعه حسن النية، وكفاك به خيراً وإن لم تنْصَب»، وقال ابن المبارك: «رب عمل صغير تعظِّمه النية، ورب عمل كبير تصغِّره النية»[3].

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم (١/ ٨٤).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) حلية الأولياء (٣/ ٧٠).

قبول أعمالك كلها في رمضان وفي غير رمضان ـ أخي الصائم ـ لن يكون الجزاء فيه إلا على قدر النية والاحتساب، وهما عين الإخلاص، فالصيام والقيام وإحياء ليلة القدر وتلاوة القرآن وغير ذلك من أمر الدين، يشترط فيه هذا الإخلاص وذلك الاحتساب ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقد قال رسول الله ﷺ عن صيام رمضان: (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه)[١]، وقال: (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)[٢]، وقال: (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه)[٣]، ومعنى (إيمانا): اعتقاداً بأن ذلك التكليف حق، و (احتساباً) أي طلباً للثواب عليه من الله[٤]، ومن رجا الثواب من الله وحده، جادت نفسه وطابت بفعل الطاعة، قال الخطابي: (احتساباً): أي عزيمة، وهو أن يصومه على معنى الرغبة في ثوابه، طيبة نفسه بذلك غير مستثقل لصيامه، ولا مستطيل لأيامه»[٥] وقال النووي ـ رحمه الله ـ في معنى (احتساباً): «أن يريد الله الله تعالى وحده لا يقصد رؤية الناس، ولا غير ذلك مما يخالف الإخلاص»[٦].

فاحرص ـ أخي الصائم ـ على حراسة عبادتك وطاعتك، ونقِّها من الرياء والعُجب ومراقبة الخلق، فـ«كل ما لا يراد به وجه الله ـ عز وجل ـ يضمحل» كما قال الربيع بن خثيم[٧].

يقول ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «انظر يا مسكين . . . إذا قطعت نهارك

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان رقم (٣٧)، ومسلم صلاة المسافرين رقم (١٢٦٨).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٦)، ومسلم رقم (١٢٦٦).
(٣) أخرجه البخاري كتاب الصوم رقم (١٧٦٨).
(٤) فتح الباري. (٤/ ١٣٨).
(٥) المصدر السابق.
(٦) شرح النووي لصحيح مسلم (٢/ ٧٨).
(٧) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٩).

بالعطش والجوع، وأحييت ليلك بطول السجود والركوع، إنك فيما تظن صائم.. !! وأنت في جهالتك جازم.. أين أنت من التواضع والخضوع، أين أنت من الذلة لمولاك والخضوع، أتحسب أنك عند الله من أهل الصيام الفائزين في شهر رمضان؟! كلا والله حتى تخلص النية وتجردها، وتطهر الطوية وتجوِّدها، وتجتنب الأعمال الدنية ولا تُرِدْها»(١).

(اللهم اجعلنا أعمالنا كلها صالحة، واجعلها لك خالصة،ولا تجعل لأحد من الخلق فيها شيئاً، واعنا على صيام وقيام شهرنا إيماناً واحتساباً... آمين)

(١) بستان الواعظين، لأبي الفرج ابن الجوزي، ص ٣١٥.

(٥)
اتباعك في رمضان

مثلما يشترط الإخلاص لله في العمل حتى يكون مقبولاً عند الله، فكذلك يشترط الاتباع فيه لكي يكون مرضياً عنده سبحانه، فكل عمل أو عبادة لا تُستمد من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، فهي مردودة، وليس لصاحبها ثواب مهما أخلص، وقد قال رسول الله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)(١).

فصحة الاقتداء بالرسول ﷺ إذن هي لقاح الإخلاص، فإذا اجتمعا أثمرا إصلاح العمل وقبوله والاعتداد به، قال ـ تعالى ـ: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [**الكهف**: ١١٠].

وصلاح العمل في اتباع هدي النبي ﷺ، فهو أكمل الهَدْي، وخير الهَدْي، وقد كان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: (إن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها)(٢). واتباع النبي ﷺ يكون بتصديق خبره، وطاعة أمره، واجتناب نهيه وزجره، وذلك في الاعتقاد والعبادة والمعاملة والسلوك.

وصدق النية في اتباع الرسول ﷺ موجب لمحبة الله ـ تعالى ـ ومغفرته ـ سبحانه ـ فهو القائل: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [**آل عمران**: ٣١]. وفي رمضان أنت مدعو للبرهنة على محبتك للرسول ﷺ بحسن اتباعك له لتصوم كما يصوم، مثلما تصلي كما يصلي.

وللرسول ﷺ هدي كامل في شهر الصيام، فلنكن من المهتدين به، المتبعين

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).
(٢) رواه مسلم (٨٦٧).

له، فالهداية في اتباعه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقد أورد الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ هدي رسول الله ﷺ في شهر الصيام مفصلاً(١)، وننقله عنه هنا مجملاً، بما يليق بمقام الاختصار والإظهار: فأصغ له أذنيك واجعله نصب عينيك مستكثراً من نية الإقبال على الطاعة، فنية المؤمن خير من عمله، لأنه لا ينوي إلا الكمال، وقلمَّا يجيء عمله على الكمال.

* كان من هديه ﷺ في شهر رمضان؛ الإكثار من أنواع العبادات، وكان أجود الناس فيه، يُكثر من الصدقة والإحسان وتلاوة القرآن والصلاة والذكر والاعتكاف، وكان من هديه ﷺ أن يخص رمضان من الاجتهاد ما لا يخص غيره من الشهور، حتى إنه كان يواصل أحياناً، فيصل اليوم باليوم بلا فطر ليتوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة، وكان ينهى أصحابه عن الوصال ويقول: (لست كهيئتكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني)(٢)، وأذن لهم في الوصال من السَحَر إلى السَحَر وقال: (لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السَحَر)(٣).

* وكان من هديه ﷺ أن يعجل الفطر ويحض على ذلك، وكان يحث على السحور ويؤخره، ويرغِّب في تأخيره، ويقول: (لا يزال الناس بخير ما عجَّلوا الفطر)(٤). وكان من هديه ﷺ الفطر بالتمر، فإن لم يجد، فعلى الماء، وكان يقول: (من وجد تمراً فليفطر عليه، ومن لا؛ فليفطر على ماء فإنه طهور)(٥).

---

(١) انظر زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٢/ ٨٧) مؤسسة الرسالة، بيروت.
(٢) أخرجه البخاري (١٨٢٧)، (١٩٦٤)، ومسلم (١٨٤٧)، (١١٠٥).
(٣) أخرجه البخاري (١٩٦٧).
(٤) رواه البخاري (١٩٥٧)، ومسلم (١٠٩٨).
(٥) أخرجه أحمد (١٥٧٩٨)، والترمذي (٦٩٥)، وأبو داود (٢٣٥٥)، وابن خزيمة وصححه (٢٠٦٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٨٣).

* وكان من هديه ﷺ أن يفطر قبل أن يصلي ، وكان عند فطره يثني على الله ويرجوه فيقول : (ذهب الظمأ ، وابتلت العروق ، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى)[١] .

* وكان من هديه ﷺ أن يجتهد في الدعاء والتضرع والرغبة إلى الله ، استجابة لمنادي رمضان (يا باغي الخير أقبل)[٢] .

* وكان ﷺ يحب أن تعلو الصائم علائم السكينة وأمارات الوقار ، فكان ينهاه عن الرَّفث والصخَّب والسُّباب وجواب السابِّ ، ويقول في ذلك : (فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو شاتمه فليقل إني امرؤ صائم)[٣] .

* ومن هديه ﷺ أنه كان إذا سافر ، يصوم ويفطر ، ويخير الصحابة بين الأمرين ، وكان يأمر أصحابه بالفطر إذا دنوا من عدوهم في قتال ، ليتقوَّوا بذلك على قتاله ، وقد قال لأصحابه لما دنوا من عدوهم : (إنكم قد دنوتم من عدوكم ، والفطر أقوى لكم) وكانت رخصةً ، ثم نزلوا منزلاً آخر ، فقال : (إنكم مُصبِّحو عدوكم ، والفطر أقوى لكم) ، فكانت عَزْمة[٤] .

* ولم يكن من هديه ﷺ إذا سافر تقدير المسافة التي يفطر فيها الصائم بحدٍ معين ، وكان الصحابة حين ينشئون السفر يفطرون من غير اعتبار مجاوزة البيوت ، ويخبرون أن ذلك سنته وهديه ﷺ ، فقد قال محمد بن كعب : «أتيت أنس بن مالك في رمضان ، وهو يريد سفراً ، وقد رُحلت له راحلته ، وقد لبس

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٣٥٧) ، والدارقطني (٢/ ١٨٥) ، والحاكم (١/ ٤٢٢) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٨٣) .

(٢) أخرجه الترمذي (٦٨٢) ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٥٤٩) .

(٣) أخرجه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) .

(٤) أخرجه مسلم (١١٢٠) .

ثياب السفر، فدعا بطعام فأكل، فقلت له: سُنَّة؟ قال: سُنَّة، ثم ركب»[١].

* وكان من هديه ﷺ إذا أدركه الفجر وهو جنب من أهله، أن يغتسل بعد الفجر ويصوم[٢]، وكان من هديه وهو صائم، أن يقبِّل بعض أزواجه، وكان يشبه قبلة الصائم بالمضمضة بالماء، فقد قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: (هششت فقبلت وأنا صائم، فقلت يا رسول الله: صنعت اليوم أمراً عظيماً، قبلت وأنا صائم، قال: (أرأيت لو مضمضمت من الماء وأنت صائم)؟ قال: فقلت: لا بأس به، فقال رسول الله ﷺ (فمهْ)[٣].

* وكان من هديه ﷺ أن يستاك وهو صائم، وكان يصب الماء على رأسه في صيامه، فقد رُؤي ﷺ يصب على رأسه الماء وهو صائم من العطش أو من الحر[٤]، وكان ﷺ يتمضمض ويستنشق وهو صائم، ولكنه منع الصائم من المبالغة في الاستنشاق، وقد سأله لقيط بن صَبرة قال: قلت يا رسول الله: أخبرني عن الوضوء، قال: (أسبغ الوضوء، وخلِّل بين الأصابع، وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً)[٥].

* وكان من هديه ﷺ أن لا يدع قيام الليل حضراً ولا سفراً، وكان إذا غلبه نوم أو وجع، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة[٦]، وكان قيامه ﷺ بالليل إحدى

(١) أخرجه الترمذي وحسنه (٧٩٩) و(٨٠٠) والدارقطني (٢/ ١٨٧، ١٨٨)، والبيهقي (٤/ ٢٤٦)، وقال محققا الزاد: إسناده قوي.

(٢) أخرجه البخاري (١٩٣٢)، ومسلم (١١٠٩)، (٧٨).

(٣) أخرجه ابن خزيمة (١٩٩٩)، وصححه، وابن حبان (٩٠٥)، والحاكم (١/ ٤٣١)، وصححه ووافقه الذهبي وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٠٨٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٥٤٧٣)، وأبو داود (٢٣٦٥). وقال النووي في المجموع (٦/ ٣٤٧): إسناده على شرط البخاري ومسلم.

(٥) أخرجه أبو داود (١٤٢)، (١٤٣) وأحمد (٤/ ٣٣)، وابن ماجه (٤٠٧)، والنسائي (١/ ٨٧)، وابن خزيمة وصححه (١٥٠) والحاكم (١/ ١٤٧، ١٤٨) وصححه ووافقه الذهبي وصححه النووي في المجموع (٦/ ٣١٢).

(٦) قال ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «في هذا دليل على أن الوتر لا يقضى لفوات محله فهو كتحية المسجد وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحوها» زاد المعاد (١/ ٣٢٤).

عشرة ركعة أو ثلاث عشرة، وقد قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : (ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا غيره عن إحدىٰ عشرة ركعة)[١]، وكان يصل الإحدىٰ عشرة أحياناً بركعتي الفجر، كما في الحديث الآخر (كان رسول الله ﷺ يصلي ثلاث عشرة ركعة بركعتي الفجر)[٢].

* وكان من هديه ﷺ إذا استيقظ للقيام أن يبدأ بالسواك ثم يذكر الله ـ تعالىٰ ـ، ثم يتطهر، ثم يصلي ركعتين خفيفتين، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته بركعتين خفيفتين)[٣].

* وكانت صلاته ﷺ بالليل علىٰ ثلاثة أنواع كما قال ابن القيم، إحداها ـ وهو أكثرها ـ أنه كان يصلي قائماً، وثانيها: أنه كان يصلي قاعداً ويركع قاعداً، وثالثها أنه كان يقرأ قاعداً، فإذا بقي يسير من قراءته، قام فركع قائماً[٤].

فاغتنم ـ أخي الكريم ـ كل أوقات شهرك، بل كل ساعات عمرك في إثبات محبتك لله، باتباعك هدي رسول الله ﷺ.

(اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك، وحب العمل الذي يقربنا إلى حبك، واجعل اتباعنا لرسولك، دليل صدق على حبك... آمين)

---

(١) رواه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨).
(٢) رواه البخاري (١٠٧٢)، ومسلم (٧٣٧).
(٣) رواه مسلم (٧٦٧).
(٤) وله ﷺ هديه في الاعتكاف في رمضان، وسيأتي في الفقرة الخاصة بذلك، راجع فيما سبق زاد المعاد (٢/ ٢٨ ـ ٦٤).

(٦)
أوقاتك في رمضان

رمضان زمن شريف، فحرمته الزمانية، كحرمة الحَرَم المكانية، وقد استمد حرمته ومكانته من نزول كلام الله ـ تعالىٰ ـ فيه، قال ـ سبحانه ـ: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فحُق لشهر تنزلت فيه آيات الهداية والبيان لكل بني الإنسان، أن تكون لأوقاته حرمتها وعظمتها عندهم جميعاً، فالكتب السماوية قد تنزلت فيه، فهي بينات الهدىٰ والفرقان؛ المنزلة قبل القرآن، وقد روىٰ الإمام أحمد في مسنده من حديث واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: (أُنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان)[١].

ولهذا فإن للزمان في رمضان خصوصية وقيمة، فمن أضاع أوقاته فقد قصر وظلم نفسه، ولم ينصفها في شهر من العام، وإضاعة أوقات رمضان يقاس عليها ـ مع الفارق في الخسارة ـ ضياع أوقات العمر، فمن قصَّر في رمضان، فهو في بقية عمره أكثر تقصيراً، وإذا غفل عن تصرم أوقاته وضياع ساعاته، فهو دليل علىٰ ذهوله عن ملاحظة مراحل سفره، بين انطلاقه أو وصوله.

فراقب مسيرة عمرك، وقارنه بمسيرة شهرك، وكيف قضاء وقتك فيه لتعلم أين أنت. يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «العبد من حيث استقرت قدمه في هذه الدار، فهو مسافر إلىٰ ربه، ومدة سفره هي عمره، والأيام الليالي مراحل فلا يزال يطويها حتىٰ ينتهي السفر، فالكيِّس لا يزال مهتماً بقطع المراحل فيما يقربه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٥٣٦) عن واثلة بن الأسقع، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٧٥).

إلى الله، ليجد ما قدم حاضراً، ثم الناس منقسمون إلى أقسام، منهم من قطعها متزوداً بما يقربه إلى دار الشقاء من الكفر وأنواع المعاصي، ومنهم من قطعها سائراً فيها إلى الله وإلى دار السلام، وهم ثلاثه أقسام: سابقون أدوا الفرائض وأكثروا من النوافل بأنواعها، وتركوا المحارم والمكروهات وفضول المباحات، ومقتصدون أدوا الفرائض وتركوا المحارم، ومنهم الظالم لنفسه الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وهم في ذلك متفاوتون تفاوتاً عظيماً»(١).

وأنت - أخي الصائم - تستطيع أن تُسائل أوقات شهرك عن سنوات دهرك، وتستعلم من حياتك في رمضان عن مسيرتك في بقية الأزمان، فسل نفسك فيه، هل أنت من السابقين، أم من المقتصدين أم من الظالمين لأنفسهم، المضيعين لشهرهم ودهرهم؟!

فإن كنت في شهرك وبقيه عمرك من السابقين ﴿**فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ**﴾ [**الواقعة**: ٨٩]، وإن كنت فيهما من المقتصدين أصحاب اليمين ﴿**فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ**﴾ [**الواقعة**: ٩١] وأما إن كنت من الظالمين المضيعين لساعاته وأوقاته، فعجل بالرجوع، وأسرع بالتوبة، قبل أن يكون رمضان لك خصماً والقرآن لك خصيماً - يقول ابن رجب - رحمه الله - منادياً من أضاع أوقاته في رمضان - وهو لما سواها في الغالب أضيع: «يامن ضيع عمره في غير طاعة، يا من فرط في شهره بل في دهره وأضاعه، يا من بضاعته التسويف والتفريط وبئس البضاعة، يامن جعل خصمه القرآن وشهر رمضان، كيف ترجو من جعلته خصمك يوم الشفاعة؟»(٢).

إننا نُبتلى في رمضان، بالاختيار بين هُدىٰ الله عز وجل وهَدْي رسوله ﷺ، وبين نزعات النفس ونزغات الهوىٰ، فلا يَغلبنك الأهواء - أخي الصائم -

(١) الفوائد لابن القيم.
(٢) وظائف رمضان (٧٧).

علىٰ رأس مالك الذي هو دقائق عمرك.

أُعطيتَ مُلكاً فسُسْ ما أنت مالكه	من لم يَسُسْ ملكه فالمُلْك قاتله
وبادِر العمر فالساعات تنهبه	وما انقضى بعضه لم يبق كامله
وليس ينفع بعد الموت عض يد	من نادم ولو انبتَّتْ أنامله

فالله - تعالىٰ - يريد منا أن نتباعد عن مساخطه وما يغضبه في أيام الصيام ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ويريد أقوام أباعد ممن يتبعون الأهواء والشهوات أن يباعدونا فيه عن الطاعة والتقوىٰ بعرض الفتن علىٰ القلوب في الإذاعات والفضائيات وغيرها من ملتقيات الغفلة ومنتديات الإسفاف: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٧].

إن رمضان تلوح فيه فرصة نادرة لمريدي اغتنام الأوقات واستثمار الأعمار، فرمضان عمر قصير وأجل محدود، له بداية منتظرة ونهاية معروفة، وهو نموذج حي مصغر للعمر التكليفي للإنسان، فالإنسان له عمر تكليفي خصصت أزمانه للطاعات في أوقاتها، وعمر وظيفي جُعل عوناً علىٰ تلك الأوقات، وقد خصص للمنامات وقضاء الحاجات الإنسانية الطبيعية والجبلِّية، وكذا شهر رمضان في نموذجه المصغر، فإذا نحن أضعنا عمرنا التكليفي فيه، وسويناه بعمرنا الوظيفي، فقد غبنَّا أنفسنا وظلمنا أرواحنا إذ لم ننصفها من أجسادنا، وهو ما يتكرر بشكل أكثر في بقية العمر، مع توافر الصحة والفراغ، ولهذا قال نبينا ﷺ: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ)[1]. يقول ابن الجوزي رحمه الله في معنىٰ هذا الحديث «قد يكون الانسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً، للشغل بالمعاش، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٢).

عن الطاعة، فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استغل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استغلها في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم»[(١)].

إن رمضان ميزان ومقياس نقيس به مدى الغبن الحاصل في الأعمار والأوقات، فهناك من يغبن في العشر الأُوَل من شهره، على أمل أن ينشط في أوسطه أو آخره، فيقصر في نوال الفضل، وهناك من ينشط في أوله، ويكسل في أوسطه وآخره، انشغالاً عن الطاعات أو استثقالاً لها، وهناك من يغبن نفسه في الشهر كله، فيخرج منه كما دخل فيه، بل ربما أسوأ مما دخل فيه، لأنه هجر القرآن في شهر القرآن، وأفطر قلبه وإن صام بجسده، ونام عن القيام والعبادة، وقام شهر الطاعة في سهر الغفلة.

يا مُذهباً ساعات عمر مالها — عِوَض وليس لفوتها إرجاع

أنفقت عمرك في الخسار وإنه — وجع ستأتي بعده أوجاع

إن شهر الصيام مقياس وميزان يمكننا به أن نقترب من المنزلة التي نحب أن نضع أنفسنا فيها في سائر عمرنا، ولا شك أن منزلة السابقين هي التي تشرئب إليها الأفئدة وتمتد إليها الأعناق، فيمكننا أن نعرِّض أنفسنا لها، ونعرِض أنفسنا عليها في رمضان، أداء للفرائض كاملة، وإكثاراً من النوافل مع اجتناب المحرمات وترك المكروهات، فإذا نجحنا في استغلال أوقات الشهر الكريم في ذلك التدريب، فلعل النفس تتوطن به على التدرج في مدارج القُربى.

(اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر ... آمين)

---

(١) نقل ذلك عنه الإمام ابن حجر في شرح الحديث (٥٩٣٣) من فتح الباري.

(٧)

تقواك في رمضان

من عادات القرآن أنه يستجيش النفوس ويدفعها لتقبل ثقل التكاليف بوعود السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، وهي وعود حق من الحق - جل وعلا - ولا يخلف الله وعده، وطريقة القرآن هذه نراها مطَّردة في ثنايا حديثه عندكل تكليف، والتكليف بالصيام ليس استثناء من هذا، فالأمر به يجيء مشفوعاً بغاية أخروية تتسامىٰ إليها النفوس، وتتطلع إليها الأفئدة، ألا وهي تحصيل التقوىٰ، تلك القلادة التي يتزين بها الأبرار للقاء الله، وفي هذا يقول الله - عز وجل - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] وما أعظم أن يكون الإنسان تقياً، وما أكبره حين يستطيع أن يحصِّل مراد الله ووصيته للأولين والآخرين في قوله - تعالىٰ - : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وكما أوصىٰ الله بالتقوىٰ مَنْ قبلنا، فكذلك كتب الصيام علينا وعلىٰ الذين من قبلنا، لأن الصيام يورِّث هذه التقوىٰ، قال الحسن البصري: «نعم والله، لقد كتب الصيام علىٰ كل أمة خلت كما كتب علينا شهراً كاملاً»(١).

والتقوىٰ من الوقاية، وهي البُعد أو التباعد عن مواطن الخوف أو أسبابه، وتقوىٰ الله: يقصد بها البعد أو التباعد عن أسباب عذابه - سبحانه -، باجتناب ما نهىٰ واتباع ما أمر.

ولذلك قال بعض المفسرين في قوله - تعالىٰ - : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، «أي: تتقون المعاصي»، والمعاصي إذا أطلقت تشمل كل ما يوجب عقوبات الدنيا والآخرة، والمسلم يتقيها بالصيام

(١) تفسير ابن كثير، (١/ ٢٠٢).

الذي يحبس النفس عن المعصية، وقد قال النبي ﷺ: (الصيام جُنَّة)[١]، أي وقاية، لأنه يقي من المعاصي لكونه يميت الشهوات التي تدفع إليها[٢].

والتقوىٰ الكاملة، يدخل فيها فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات، وربما يدخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات وترك المكروهات، وذلك أعلىٰ درجات التقوىٰ، ولهذا جُعل القرآن إماماً وهدىٰ للمتقين، لأنه يهدي للتي هي أقوم في كل شيء، وقد وُصف في أول آيات المصحف بعد الفاتحة بأنه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وذلك لأنه يوطِّن النفس علىٰ التقوىٰ الكاملة.

وعندما تريد - أيها الصائم - أن يحقق الصيام لك التقوىٰ الكاملة؛ فاجعله صوماً كاملاً وذلك بتنزيهه عن القوادح الحسية والمعنوية.

قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -: «ليس تقوىٰ الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوىٰ الله: ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رُزق بعد ذلك خيراً، فهو خير إلىٰ خير»[٣].

إن الصيام هو ميدان التسابق إلىٰ مراتب التقوىٰ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، والمتقون يغتنمون أيامه ولياليه للاستزادة منها، إيماناً بالله، واحتساباً في عبادته، ومحاسبة للنفس، وتحسباً من تورطها في مسببات العقاب والعذاب من آفات العجب والرياء التي تحيط بالإنسان، وقد تحبط عمله في رمضان وفي غير رمضان.

كان السلف رضوان الله عليهم، يعيشون جوهر التقوىٰ، ويعاينون معناها فيُحيون بها حياتهم، ويبعثون بها الروح في عبادتهم، فلكل عبادة عندهم بالتقوىٰ روح: للصلاة روح، وللصيام روح، وللدعاء روح وللذكر والتوبة،

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).

(٢) انظر: تفسير القرطبي، (١/ ٢٧٦).

(٣) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، ص ٤٠٠.

وللزكاة والحج والعمرة، وللجهاد والحسبة وللعلم والتعلم، لكل ذلك روح وكله مستمد من روح القرآن المنزل هدىً للمتقين: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾.

[الشورى: ٥٢]

تعالوا نستحضر حقيقة التقوىٰ - كما كان السلف يحيونها - لعلها تحي فينا روح الصيام، ولعلنا نعيش معها معاني الصيام:

* قال طلق بن حبيب - رضي الله عنه - كاشفاً عن روح التقوىٰ: «التقوىٰ أن تعمل بطاعة الله علىٰ نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله علىٰ نور من الله، تخاف عقاب الله».

ونحن في رمضان. . لنعمل بطاعة الله راجين ثوابه، وخائفين من عقابه، فالخوف والرجاء كجناحي الطائر للوصول إلىٰ رضا الله، **فلنستحضر هذا المعنى من معاني التقوى في رمضان.**

* وقال أبو الدرداء - رضي الله عنه - مبيناً حقيقة التقوىٰ: «هي أن يتقي العبد ربه، حتىٰ يتقيه من مثقال ذرة، وحتىٰ يترك بعض ما يرىٰ أنه حلال، خشية أن يكون حراماً، ليكون حجاباً بينه وبين الحرام، فإن الله قد بيَّن للعباد الذي يصيرِّهم إليه فقال: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]، فلا تحقرن شيئاً من الخير أن تفعله، ولا شيئاً من الشر أن تتقيه».

هل تأملت - أخي - في هذا الملحظ الدقيق في التقوىٰ، وهل أنت مستعد لإشغال بالك به في شهر التقوىٰ؟! إن هذا يحتاج إلىٰ روح عالية من المحاسبة علىٰ الذرة ومثقال الذرة، فسوف نرىٰ من أعمالنا مثاقيلها من خير أو شر. . . **ولنستحضر هذا المعنى أيضاً من معاني التقوى في رمضان.**

* قال ميمون بن مهران ـ رحمه الله ـ «المتقي أشد محاسبة للنفس من الشريك الشحيح لشريكه». ونلحظ من كلامه؛ أن التقوىٰ بمقدار ما تحيا في القلب، تُحيِّي قدرته علىٰ محاسبة النفس، وليس كثيراً علىٰ نفسك التي بين جنبيك أن تخصها بشهر من العام، تحاسبها فيه عما قدمت طوال عام مضىٰ، استعداداً لعام قادم . . . **لنضف هذا المعنى إلى معاني عبادتنا وتقوانا في رمضان.**

* سئل أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن التقوىٰ فقال للسائل: «هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوىٰ»[1].

ونحن تعترضنا في رمضان وغيره أشواك في طريق الأشواق إلىٰ الله، ورمضان فرصتنا للتدرب علىٰ مجاوزتها والعدول عنها، وهذا معنىً للتقوىٰ آخر نحتاج لإضافته إلىٰ العبادة في رمضان متمثلين قول الشاعر ابن المعتز:

خل الذنـــوب صغيرها ... وكبيرهـا فهـــو التُقـى
واصنـــع كماشٍ فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقـــرن صغـــيرة ... إن الجبـــال من الحصى

إن القربىٰ إلىٰ الله في رمضان وتحصيل التقوىٰ بالصيام، لا يتمان إلا بهجر الحرام. قال ابن رجب الحنبلي ـ رحمه الله ـ: «اعلم أنه لا يتم التقرب إلىٰ الله تعالىٰ بترك هذه الشهوات المباحة في غير حالة الصيام إلا بعد التقرب إليه بترك ما حرم الله عليه في كل حال، من الكذب والظلم والعدوان علىٰ الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ولهذا قال ﷺ: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)[2]، وفي حديث آخر قال: (ليس

---

(١) انظر هذه الآثار وغيرها في جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠٠، ٤٠١).
(٢) أخرجه البخاري، رقم (١٧٧٠)، (٥٥٩٧).

الصـيـام من الطعـام والشـراب، وإنما الصـيـام من اللغـو والرفث)[١]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً (والصيام جُنَّة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن أحد سابه أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم)[٢]، و(الجُنة) ما يستر صاحبه ويحفظه من الوقوع في المعاصي و (الرفث) الفحش ورديء الكلام»[٣].

(اللهم إنا نسألك الهدى والتُقى والعفاف والغنى، ونسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الغضب والرضا... آمين)

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٤٧٩) والحاكم (١/ ٤٣٠) وابن خزيمة (١٩٩٦) وصححه الألباني في صحيح الموارد (٧٤١).
(٢) أخرجه البخاري، رقم (١٧٧١)، ومسلم رقم (١٩٤٤).
(٣) وظائف رمضان، ص٢٠ .

(٨)
أخلاقك في رمضان

إذا كان تحصيل التقوىٰ هو الأثر الباطن لإقامة فريضة الصيام، فإن حُسن الخُلق هو الأثر الظاهر لها، وصلاح الباطن لا بد أن يبدو على الظاهر، ولهذا يُرىٰ الصائم - أو ينبغي أن يُرىٰ - صافياً ساكناً أليفاً، تعلوه مهابة الاستجابة، وأنوار الطاعة.

إن لحسن الخُلق حقيقة، لا تكاد تخطئها العين في المتحلين به والموفقين إليه، يقول الحسن البصري - رحمه الله - «حقيقة حُسن الخلق: بذل المعروف، وكف الأذىٰ، وطلاقة الوجه». وقال القاضي عياض: «حسن الخُلق هو: مخالطة الناس بالجميل والبِشر، والتودد لهم، والاشفاق عليهم، واحتمالهم، والحلم عنهم، والصبر عليهم في المكاره، وترك الكبر والاستطالة عليهم، ومجانبة الغلظ والغضب والمؤاخذة»[١]، وهي أعمال - كما ترىٰ، مطلوبة في الشرع، مقدورة في الطبع، نافعة لصاحبها قبل أن تكون نافعة للناس، ولهذا أمر النبي ﷺ بها وقال ﷺ لأبي ذر (رضي الله عنه): (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالِق الناس بخلُق حسن)[٢]، وهذه المخالقة للناس بالخلق الحسن، هي نفسها مخالطتهم بموجباته وسلوكياته، فإن (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم، أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم)[٣].

بعض الناس يعكس الآية - كما يقال - فتتحول أخلاقه في رمضان - بحجة

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٥٧).

(٢) رواه الترمذي (١٩٨٧) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١٦٠).

(٣) رواه الترمذي (٢٥٠٧) وابن ماجه (٤٠٣٢) وأحمد (٥٠٠٢) (٢٢٥٨٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٩).

الصيام - إلى النقيض، فلا يرى إلا فظاً غليظاً، لا يتراخى ولا يتراحم، لا يألف ولا يُؤلف، وأمثال هؤلاء قد يُبتلى بهم المرء فيكون صبره عليهم واحتماله لهم من أعمال البر والخلق الحسن، ولهذا قال الإمام أحمد - رحمه الله - : «حسن الخلق، أن تحتمل ما يكون من الناس»(١).

إن شهر رمضان، يمكننا أن نحوله إلى برنامج تقويم سلوكي ونفسي وأخلاقي متكامل، على المستويات الفردية والجماعية، وظروفه المواتية لذلك - من سَلْسَلة الشياطين، ونزول السكينة على الصائمين؛ تتيح فرصاً لا تعوَّض لغرس وتنمية خصال حميدة وجديدة، يمكن أن تظل باقية في سائر العام، ويكفي أن نضيف في قائمة أعمال البر التي سنتقرب إلى الله بها في رمضان: حسن الخلق. فحسن الخلق من أزكى وأعلى أعمال البر، بل هو البر نفسه، فقد جاء رجل يسأل رسول الله ﷺ عن البر، فقال له: (البِّر حسن الخُلق)(٢)، ولنتأمل هنا في تلك الإشارات القرآنية الرافعة من شأن البر - أعني حسن الخلق - فقد صحح القرآن أفهام الناس عن مفهوم البر، ليضعه في سياقه الصحيح المتعلق بإصلاح الباطن والجوهر، دون الاقتصار على الشكل والمظهر، فقال - تعالى - : ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٧]، فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر يورث نوازع للخير في النفس تبعث على خلال الخير، وأخلاق البر والصلة، وصفات الوفاء والصبر، وهذه الأخلاق - كما ترى - تؤول إلى وصف التُقى الذي ماشرع الصيام

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٥٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٣).

إلا من أجل تحصيله، وهنا تلحظ - أخي الصائم - أن الرابطة وطيدة بين التقوىٰ وحسن الخلق، ولهذا فقد جمع الله للنبي ﷺ بينهما، فقد كان أتقىٰ الخلق - كما قال (إني لأخشاكم لله وأتقاكم له)[١] ولأنه ﷺ أتقىٰ الناس فقد كان أعظم الناس خُلُقاً، حتىٰ قال الله تعالىٰ فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وهنا تتضح العلاقة بين الأخلاق والتقوىٰ، فالتقوىٰ هي صلاح ما بين العبد وبين ربه، والبر وحسن الخلق هو صلاح ما بينه وبين الناس، فإذا أصلح العبد ما بينه وبين ربه كان تقياً، وإذا أصلح ما بينه وبين الناس كان براً. والصيام يدعو إلىٰ الأمرين ففي القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] وفي السُّنة قوله ﷺ: (وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب)[٢]، واجتماع الأمرين معاً: التقوىٰ وحسن الخلق، يوصل المرء إلىٰ مصاف الأولياء المقربين، وفقدهما أو أحدهما يسلكه في سبيل المجرمين.

ولما كانت الأخلاق الحسنة والصالحة، فرقاناً بين سبيل الأبرار وسبيل الفجار فقد جعلها الله - تعالىٰ - إحدىٰ الوظائف العظمىٰ لرسالة النبي ﷺ، ولهذا قال - عليه الصلاة والسلام -: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[٣]، وفي رواية: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، فهذه الأخلاق التي اعترتها قبل بعثة النبي ﷺ، غيوم غبراء، علتها بالصدأ وجللتها بالسواد، احتاجت إلىٰ تكميل وتجميل، فجاء النبي ﷺ ليردها إلىٰ كمالها وجمالها ويعيدها إلىٰ الوصف الكريم، لتعود كما كانت: مكارم الأخلاق.

إن رمضان شهر كريم، ولما كان القرآن المنزل فيه كريماً كما وصفه منزله -

---

(١) أخرجه مسلم (١١١٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٧١).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٨٧٢٩) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥).

سبحانه ـ ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧] ، ولما كان مُنزِّل هذا القرآن كريماً، كما وصف نفسه ـ سبحانه ـ : ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] ، ولما كان من تنزل بهذا القرآن ـ وهو جبريل عليه السلام ـ كريماً، كما وصفه القرآن: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٠] ، ولما كان من تَنَزَّل عليه هذا القرآن كريماً، بل أكرم الناس، فلا جرم بعد كل ذلك أن نرى القرآن باعثاً لأعلى درجات المكارم في الأخلاق، ورسول الله ﷺ لم يُبْعث ليكمِّل مكارم الأخلاق إلا وقد تحلى بها وتخلى عن أضدادها، من خلال تخلُّقه بالقرآن، وتضلُّعه من شمائله، حتى إن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عندما سئلت عن أخلاقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قالت: (كان خلقه القرآن)[1]. فمكارم الأخلاق التي توزعت في أكارم العالمين من الأنبياء والأتقياء والصالحين، تجمعت في شخص سيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ فجمع الله ـ تعالى ـ في أخلاقه ما تفرق في أخلاقهم جميعاً. والقرآن الذي تخلق به الرسول ﷺ، لا يزال غضاً يانعاً كما أنزل، والرسول الذي تخلق بهذا القرآن، لن تزال سيرته حاضرة حية، فحري بك ـ أيها الصائم ـ وأنت في شهر الكرم والمكارم، أن تضع لنفسك غاية كبرى في الوصول إلى حظ وفير من مكارم الأخلاق تكمل بها إيمانك وتستوجب بها محبة ربك في شهر الصيام، فإن (أكمل المؤمنين أحسنهم خلقاً)[2]، وإن (أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقاً)[3]، فإذا حزُت بالصيام حسن الخلق مع التقوى، فزت برضى ربك، وبجوار نبيك ﷺ في الجنة كما قال عليه الصلاة والسلام: (إن من أحبكم إليَّ

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٣٣) رواه أحمد (٢٤٧٧٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٦١٢) وأحمد (٢٣٦٨٤) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٤).

(٣) أخرجه الترمذي (١٠٨٢)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٩١).

وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً. وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيقهون، قال: المتكبرون)[١].

(اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق والأعمال، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها، لا يصرف عنها سيئها إلا أنت... آمين)

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٨) وقال حسن غريب، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٩١).

(٩)

أذكارك في رمضان

الإيمان يزيد وينقص في قلب المؤمن، وزيادته تكون بالطاعات، ونقصانه تحدثه المعاصي، ولا شيء من أعمال الطاعات أفضل من ذكر الله، فقد قال ﷺ: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم، قالوا بلى، قال: ذكر الله تعالى)[1]. فذكر الله ـ تعالى ـ يجدد الإيمان ويزيده، ويجلو القلب ويعيده إلى صفائه قبل أن يعلوه الران أو يعتريه الصدأ.

والله تعالى لم يأمر أهل الإيمان بأن يذكروه فحسب، بل أمرهم بالإكثار من ذكره فقال ـ سبحانه ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ [**الأحزاب**: ٤١ – ٤٢]، وقال ﴿**وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [**الجمعة**: ١٠] وأثنى على من يكثر من ذكره في كل حال فقال: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**﴾ [**آل عمران**: ١٩١] ووعدهم بعظيم الأجر بعد مغفرة الذنب فقال: ﴿**وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [**الأحزاب**: ٣٥]. وقد أخبر النبي ﷺ بأن المكثرين من الذكر، هم السابقون إلى الأجر، فقال: (قد سبق المفرِّدون) قالوا: ومن المفرِّدون يارسول الله؟ قال: (الذاكرون الله كثيراً والذاكرات)[2] والمفرِّدون جمع مفرِّد، وهو المنفرد مع الله بقلبه ولسانه ذاكراً، ولو كان مخالطاً للناس.

ولهذا كان الذِّكر روح الأعمال كلها، لأنه أكبر من الأعمال كلها، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾ [**العنكبوت**: ٤٥]، وقد بيَّن أهل

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٦).

العلم في معنى هذه الآية أن ذِكر الله أكبر من كل شيء، فهو أفضل الطاعات، لأنه المقصود في أكثر الطاعات فهو سرها وروحها، وقد اقترن بأكبر أعمالها:

- فلا إله إلا الله - وهي كلمة التوحيد - هي ذكر، بل هي أفضل ما يذكر به الذاكرون.

- واقترنت الصلاة بالذكر: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

- واقترن الحج بالذكر: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

- واقترن الجهاد بالذكر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقد جعل الله علامة الأمناء على دينه، وهم العلماء - أن يكونوا من الذاكرين، بل إنه سماهم أهل الذكر فقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

والغفلة عن ذكر الله من علامات الحرمان والخسران، قال - تعالى -: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

ولا نجاة من الغفلة والحرمان والجهل، ومن النقصان والخسران إلا بحضور ذكر الله على لسان المرء وقلبه، قال معاذ بن جبل - رضي الله عنه -: «ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله»(١)، فلا بد من تذليل اللسان وتعويده على الذكر في كل حال، حتى تُطوَّع النفس على الإكثار منه، فتستكثر بذلك من الخير وتزداد في الإيمان، وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فأخبرني بشيء أتشبث به، فقال: (لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله)(٢).

---

(١) الأثر في الترمذي (٣٣٧٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٧٩٣)، وابن ماجه (٣٢٩٧)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٠٦٠).

ولا شيء يرطب اللسان بذكر الله أكثر من المحافظة على أوراد من الأذكار تعمر بها الأوقات، وتحيا بها القلوب، فالمحافظة على الورد القرآني اليومي أو الأسبوعي أو الشهري؛ أمر مهم لمن يريد أن يكون قلبه موصولاً بحديث الوحي. والأوراد من أذكار اليوم والليلة هي سلاح المؤمن في مواجهة حُجُب الغفلة وأقفال الانشغال.

والإنسان كثيراً ما يُشغل عن هذه الأوراد أو عن بعضها بعاديات الزمن وصوارف الأحوال، ولكن لا بد من الاشتغال بمواجهة هذه الشواغل، حتى لا تصرفنا عن أبواب الخير التي تجدد الإيمان، ولنتذكر كيف كان النبي ﷺ يحافظ على ذكر الله آناء الليل وأطراف النهار دون أن تشغله عن ذلك هموم حمل الرسالة، وأعباء سياسة الأمة، ومجهودات تبليغ الدعوة. ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً**﴾ [**الإنسان**: ٢٥ - ٢٦].

تلوح في أيام رمضان ولياليه أعظم الفرص لإعادة التوازن إلى برنامجنا اليومي، حتى لا تفترسه كله شواغل الدنيا وتقلبات الأحوال. ولكي نعيد التوازن إلى برنامجنا اليومي ابتداء من شهر رمضان؛ بوسع الواحد منا أن يجعل للأذكار فيه مكاناً لا يُزاحم، ومضماراً لا ينافس. تستطيع مثلاً أن تشغل وقت الأسحار - قبيل الفجر - بالاستغفار، وبعد الفجر بالتسبيح والقعود لأذكار الصباح حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت صليت ما تيسر من ركعات الضحى، فإذا ما تم لك ذلك وأقبلت على قسط من النوم استعداداً ليوم من العمل، فبوسعك بعد العمل أن تقتنص فرصة لأذكار المساء قبيل غروب الشمس والانشغال بالإفطار، فرمضان موسم للذكر، كما هو موسم للصيام والقيام والجود وأنواع العبادة.

إن للأذكار في ليالي رمضان وأيامه متسعاً كبيراً، وهي مع ذلك تكتسب روحاً ربما لا تكون في غيره، من حيث الصفاء والسكينة والخشوع، فكيف إذا أضيف إلى ذلك أن الأذكار في رمضان ليست كالأذكار في غيره من حيث الفضل والأجر؟!

يقـول النخعي ـ رحمـه الله ـ: «صـوم يوم من رمـضـان أفضـل من ألف يوم وتسبيحه فيه أفضل من ألف تسبيحة، وركعة فيه أفضل من ألف ركعة»(١).

والذاكر لله تعالىٰ بقلبه ولسانه، كما يجدد إيمانه؛ فإنه يجدد براءته من النفاق، فالمنافقون أقل الناس ذكراً لله ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢] والمؤمن مطالب بأن يتميز عن المنافقين فيكون ذاكراً شاكراً، قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «من أكثر من ذكر الله، برئ من النفاق»(٢).

ومن رحمة الله أنه جعل قسطاً من ذكر العباد له فريضة لازمة، حتىٰ لا يكونوا مخيرَّين بين أن يذكروه أو يغفلو عنه، فيغلبهم الشيطان بالغفلة، ولأجل ذلك فرض الصلاة وقال: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] وقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] وقد سنَّ رسوله الله ﷺ صلوات أخرىٰ وجعلها مؤكدة، هي نوافل وزيادة في ذكر الذاكرين، تجبر النقص الذي قد يلحق بذكرهم المفروض، وقد جعلت النوافل متخللة للفرائض حتىٰ لا تطول الغفلة. وكل هذه الصلوات يشترك فيها القلب مع الجوارح، وإضافة إلىٰ ذلك شرع ذكر باللسان في كل الأحيان، في أذكار موظفة في اليوم والليلة، تتأكد منها الأذكار عقيب الصلوات المفروضة، فيشرع فيها أن يذكر المصلي ربه مائة مرة عقب كل صلاة مفروضة، ثلاثاً وثلاثين تسبيحه وثلاثاً وثلاثين تحميدة، وثلاثاً وثلاثين تكبيرة، تختم بأفضل كلمات الذكر (لا إله إلا الله). والأوقات التي لا تشرع بعدها صلوات التطوع، وهي الفجر والعصر، شرع الاكثار من الذكر باللسان بعدها، وقد أورد الله ذلك في كثير من آيات القرآن، كقوله تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٢] وقوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الإنسان:

(١) وظائف رمضان، ص ١٥.
(٢) لسان الميزان (١٩٥٥).

٢٥] وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥] وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

ولهذا كثرت في الكتاب والسنة الوصية بهذين الوقتين - الفجر والعصر - وما بعدهما، فالفجر صلاة تشهدها الملائكة: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] والعصر - على الأرجح - هو الصلاة الوسطى التي قال الله - تعالى -: فيها: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وهما البردان اللذان قال عنهما رسول الله ﷺ (من صلى البردين دخل الجنة) فهما أفضل الصلوات، وما بعدهما أفضل الأوقات وأنسبها للذكر المطلق، الذي يدخل فيه قراءة القرآن وتعلمه وتعليمه والعلم النافع، إلا أن للتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والاستغفار وأذكار اليوم والليلة أولوية بعد هاتين الصلاتين، قبيل شروق الشمس وقبيل غروبها.

فلا تغفل - أخي الصائم، أختي الصائمة - عن هذه الأوقات المفضلة خلال الشهر، فهي أوقات تغالبنا عليها لذه المنام أو انشغالات الإعداد للطعام، فلنكن حذرين حتى لا تفوتنا. وأذكار اليوم والليلة أو أوراد الليل والنهار - أخي الكريم - تجدها في مظانها، فاطلبها وحافظ عليها، وذلل لسانك بها وفرِّغ أوقاتك لها، عسى الله أن يكتبنا وإياك من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات. وقد سئل الإمام أبو عمرو بن الصلاح - رحمه الله - عن القدر الذي يصير به المرء من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات فقال: «إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحاً ومساءً، وفي الأوقات والأحوال المختلفة في ليل العبد ونهاره، وهي مبينة في كتب عمل اليوم والليلة؛ كان من الذاكرين الله تبارك وتعالى كثيراً»[١].

(اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ولا تجعلنا من الغافلين... آمين)

(١) فتاوى ومسائل ابن الصلاح، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي (١/ ١٥٠).

(١٠)
تلاوتك في رمضان

اقترن شهر رمضان بالقرآن، وذلك لأنه الشهر الذي أنزل فيه ذلك الكتاب العظيم، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] .

واقتران رمضان بالقرآن له صلة بفرض الصيام فيه، فالصوم من أقوىٰ الأسباب في إزالة العلائق البشرية الحاجبة عن رؤية الأنوار الإلهية المبثوثة في القرآن، ولهذا فإن المناسبة والصلة بين الصوم وبين نزول القرآن عظيمة. فلما كان رمضان مختصاً بنزول القرآن؛ فقد كان لازماً أن يكون مختصاً بالصوم، لأن الصوم هو أنسب حالات الإنسان لتلقي هدىٰ الله المنزل في القرآن.

والآيات تشعرك بأن من أعظم مقاصد الصوم، تصفية الفكر لأجل فهم القرآن، فبعد الحديث عن فرضية الصيام ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣] ، جاء الحديث عن تنزل القرآن في رمضان ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] . ليكون شهر رمضان مختصاً بالصيام لأجل القرآن، ومن هنا كان رمضان، وكان الصيام لأجل القرآن، ولا عجب بعد ذلك أن يقال عن رمضان: شهر القرآن.

وقد فهم سلفنا الصالح هذا المعنىٰ جيداً ووعوه، وعلموا أن وظيفة رمضان الكبرىٰ هي الاعتناء بالقرآن، والقيام بالقرآن، والصيام لأجل تخلية الذهن للقرآن. سئل الزُّهري ـ رحمه الله ـ عن العمل في رمضان فقال: «إنما هو تلاوة القرآن، وإطعام الطعام»، ونقل عبد الرزاق عن الإمام الثوري أنه كان إذا دخل رمضان ترك جميع العبادات غير الواجبة، وأقبل علىٰ تلاوة القرآن، وحكىٰ ابن عبد الحكَم عن الإمام مالك أنه كان إذا دخل رمضان، فرَّ من مجالس العلم، وأقبل علىٰ تلاوة القرآن من المصحف[1] .

والمعنىٰ الذي ينبغي أن يظل عالقاً في الذهن، ونحن نتحدث عن تلاوة القرآن في رمضان وفي غير رمضان، هو أن نوقن بأن التدبر وتفهم معاني كلام الله؛ هو

(١) وظائف رمضان، ص ٤٢ .

مقصود تلك التلاوة، ولذلك جعل ابن القيم ـ رحمه الله ـ أول سبب من الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله: (قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه، وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه)[١]، وقد قال الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها في النهار»[٢]، وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «ينبغي لتالي القرآ ن العظيم أن ينظر كيف لطف الله ـ تعالىٰ ـ بخلقه في إيصال معاني كلامه إلىٰ أفهامهم، وأن يعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم ـ سبحانه ـ، ويتدبر كلامه»[٣].

ولذلك فإن المنة لله ـ تعالىٰ ـ، أن أذن لمخلوقات ضعيفة مثلنا، أن تناجيه، وتبحث في كتابه وتتدبر معانيه، قال ابن الصلاح ـ رحمه الله ـ: «قراءة القرآن كرامة أكرم الله بها البشر، فقد ورد أن الملائكة لم يعطَوْا ذلك، وأنها حريصة علىٰ استماعه من الإنس»[٤].

ومع امتنان الكريم المنان ـ سبحانه ـ علىٰ عباده بالإذن في مناجاته والنظر في كلماته، فقد امتن عليهم أيضاً بأن أعطاهم أعظم المنازل علىٰ ذلك، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ**﴾ [فاطر: ٢٩ – ٣٠]، وقد اصطفىٰ الله ـ تعالىٰ ـ لنفسه أهل كتابه التالين له، والعاملين به، فجعلهم أهله وخاصته، كما قال الرسول ﷺ: (إن لله أهلين من الناس) قيل من هم يا رسول الله؟ قال: (أهل القرآن، هم أهل الله وخاصته)[٥].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لشيخ الإسلام ابن القيم (٣/ ٧) مكتبة السنة المحمدية بالقاهرة، وانظر: شرح تلك الأسباب في كتاب (شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله) للمؤلف، من اصدارات دار طيبة بالرياض.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام محيي الدين النووي، ص ٢٨، مكتبة المنار، الأردن.

(٣) مختصر منهاج القاصدين، ص٤٦، اختصار الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي وتحقيق: عبد الله الأنصاري.

(٤) الاتقان في علوم القرآن، للحافظ جلال الدين السيوطي، (١/ ٢٩١)، دار التراث، القاهرة.

(٥) رواه ابن ماجه (٢١٥) وأحمد في مسنده (١١٨٨٣)، (٢٤٢)، والحاكم (١/ ٥٥٦)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٧٨).

إن اهتمامك - أخي الصائم - بالقرآن في رمضان، تلاوة ومدارسة؛ ينبغي أن يكون بداية لتصحيح المسار مع القرآن حتىٰ تكون من أهله الذين هم أهل الله وخاصته وحتىٰ لا تكون من الهاجرين له، المستجلبين غضب ربهم وشكوىٰ رسولهم ﷺ ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

فليكن لك بالقرآن في رمضان، ورد أو حزب، تستمر به بعده، حتىٰ تكون من أهل الذكر، لا من أهل الهجر، فتحزيب القرآن سُنَّة لكنها مهجورة، كادت تضيع بين أهل الدعوة والالتزام فضلاً عن العوام، وقد كان شأن السلف مع القرآن أن يحافظوا علىٰ قدر ثابت من القراءة كل يوم يسمونه حزباً أو ورداً، أو جزءاً يوصلهم إلىٰ ختم القرآن في كل شهر مرة، أو كل أسبوع مرة، أو كل ثلاثة أيام مرة، وأصل السُنة في ذلك، أحاديث صحيحة، منها قول رسول الله ﷺ: (من نام عن حزبه أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كُتب له كأنما قرأه من الليل)(١).

وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - يتأسون برسول الله ﷺ في تحزيب القرآن، فقد استضاف ﷺ أناساً من وفد ثقيف في قُبَّة له، وكان يأتيهم كل ليلة بعد العشاء يحدثهم، فأبطأ عليهم ذات ليلة فقالوا: لقد أبطأت علينا الليلة، فقال: (إنه طرأ عليَّ حزبي من القرآن، فكرهت أن أخرج حتىٰ أتمه) قال راوي الحديث، وهو أوس بن حذيفة الثقفي: (فسألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزِّبون القرآن؟ قالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدىٰ عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل)(٢)، وقد كانت عائشة - رضي الله عنها - تحزِّب القرآن

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٧).

(٢) أخرجه ابن ماجة (١٣٤٥) وحسنه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٢٧٦) وأورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٨) محتجاً به علىٰ أن تحزيب القرآن كان معمولاً به في حياة الرسول ﷺ، وكذلك احتج به شيخ الإسلام ابن تيمية، أثناء كلامه عن تحزيب القرآن بالسور والأجزاء، قال شارح عون المعبود في كلامه علىٰ هذا الحديث: «والحزب هو ما يجعله الرجل علىٰ نفسه من قراءة، وقولهم «ثلاث» أي: البقرة وآل عمران والنساء، فهذه السور الثلاثة، منزل واحد من سبع منازل في القرآن، (وخمس) من المائدة إلىٰ البراءة (وسبع) من يونس إلىٰ النحل (وتسع) من الصافات إلىٰ الحجرات (وحزب المفصل وحده من قاف إلىٰ آخر القرآن، فعلم من هذا أن في عصر الصحابة كان ترتيب القرآن مشهوراً علىٰ هذا النمط المعروف الآن» (عون المعبود في شرح سنن أبي داود) (٢/ ٨٧).

كي تختمه في سبع، فقالت - رضي الله عنها - : (إني لأقرأ جزئي - أو قالت: سُبْعي - وأنا جالسة على فراشي أو على سريري)(١).

ولكن اهتمام السلف بتلاوة القرآن في رمضان كان له شأن آخر، فقد كان يُسمع لهم به في بيوتهم دَوِيٌّ كدوي النحل. وإذا كان رمضان بتمامه زماناً شريفاً للتلاوة والذكر، فإن لياليه أنسب لذلك فهي أرق في الشعور وأدق في التدبر، ولعل هذا سبب مجيء جبريل - عليه السلام - ليلاً إلى النبي ﷺ في رمضان، لكي يدارسه القرآن، كما ذكر ذلك ابن عباس - رضي الله عنهما - . ويعلق ابن رجب على ذلك الحديث فيقول: «دل على استحباب الإكثار من التلاوة في رمضان ليلاً، فإن الليل تقطع فيه الشواغل، وتجتمع فيه الهمم، ويتواطأ القلب واللسان على التدبر، كما قال - تعالى - : ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [**المزمل**: ٦]»(٢). هذا من ناحية الأزمنة، أما من ناحية الأمكنة، فلا شك أن للمساجد فضلها في القراءة، وبخاصة إذا اقترنت التلاوة بالمدارسة والتعلم، فقد قال رسول الله ﷺ: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)(٣).

(اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وذهاب غمنا وحزننا وذكرنا منه ما نُسِّينا، وعلمنا منه ما جهلنا وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا... آمين)

---

(١) أخرجه أبو عبيدة في فضائل القرآن (٢٩١).
(٢) وظائف رمضان، ص ٤٢.
(٣) أخرجه مسلم (٩٤٨).

(١١)

بيتك في رمضان

كانت بيوت السلف تظللها في رمضان هالات النور، وسحابات الرحمة، فالمروي عنهم أن بيوتهم كان لها بالقرآن دَوِيٌ كدوي النحل.

ومن مكرمات الأيام المعدودات في شهر الصيام، أنها مجال للتغيير والتقويم على مستوى الأسرة، كشأنها على مستوى الفرد. فإذا كان فرض كل فرد فينا أن يتعاهد نفسه بالمراجعة والتقويم في شهر رمضان، فإن من واجبه أيضاً أن يباشر تقويم أهله وأسرته في هذا الشهر الكريم، لأنه راع، وكل راع مسؤول عن رعيته.

إن شياطين الجن، رغم تصفيد مردتهم وسلسلتهم في رمضان، يتحالف بقيتهم من غير المرَدَة مع شياطين الإنس، لإفساد ذلك الشهر على عباد الله، فهم يتسابقون حتى قبل أن يبدأ الشهر بشهور لكي يملأوا الأيام والليالي الرمضانية بما يمرض القلوب، لا بما يرمض آفاتها. وبدلاً من الاستكثار من خصال الخير والتسابق فيها؛ يستكثرون من الأفلام والمسلسلات والفكاهات والمسابقات واللقاءات الموجَّهة غير البريئة، التي لا تفسد في الأرض فقط، بل تملأ الفضاء بالغثاء الغث، والخُلق الوضيع.

مسؤوليتك أيها المسلم أن تقوم بدور في رمضان للتصدى لحملات تصدئة الأرواح، التي يقوم عليها لصوص مهمتهم سرقة القلوب أيام الطاعة، حتى لا ترق ولا ترقى بتلاوة أو صيام، ولا تصبر على ذكر أو طول قيام، ولا ترعوي بحفظ سمع ولابصر ولا فؤاد في شهر القرآن، اسمع قول الله ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦] ، لتعلم أن كُلاً منا سيسأل عن هذا السمع والبصر والفؤاد، سواء عن نفسه، أو عمن استرعاه الله من رعية، وما استحفظه من أمانة.

لقد نادانا الله بنداء الإيمان - في رمضان وغير رمضان - أن احجزوا أهليكم عن الفتن، وباعدوا بينهم وبين العذاب فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦] أرأيت إلىٰ من ترك أهله في الشهر الكريم يضيِّعونه ويفوِّتون أيامه ويضحون بلياليه أمام المفسدات، هل وقىٰ أهله النار؟! أرأيت إلىٰ من أهمل طاعتهم فيه كما يهملها في غيره، هل اتقىٰ الله فيهم؟!

باشر أحوال أسرتك وأولادك في حفظ الصيام، واصحبهم في الذهاب للقيام، وتفقد أحوالهم مع القرآن، وراقب ترقِّيهم في مراتب الطاعة والإيمان، وبخاصة في الصلاة ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢].

ولقد أثنىٰ الله - تعالىٰ - علىٰ أبينا إسماعيل إذ كان راعياً لأهله في دينهم قبل دنياهم: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٤ - ٥٥].

ورمضان - أخي الصائم، أختي الصائمة - موسم لإقامة شعائر الله، ولزمانه حرمة ضمن حرمات الله، ونحن المسلمين مأمورون بأن نعظِّم شعائر الله ونعظِّم حرمات الله ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢]، ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ [الحج: ٣٠].

* ومن تعظيم حرمات الله في شهر الصيام، ألا ندخل فيه علىٰ أهلينا ما يعكر صفو أيامه ولياليه بصور الفحش والبذاء وأصوات الغنا والخنا، الذي تُنسي الناس القرآن حتىٰ في شهر القرآن ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ٦].

* ومن تعظيم حرمات الشهر الكريم، ألا نترك أبناءنا يضيعون فيه الصلوات

مع الجماعة، لأن في هذا إضاعة للنفس وتعريضاً لها إلىٰ سبل الهلاك ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٥٩ - ٦٠]، بل إن رمضان فرصة للتوبة من إضاعة الصلوات، وتعويد الأبناء علىٰ تصحيح العلاقة مع الجماعة والمسجد.

* ومن تعظيم حرمات الشهر مع الأبناء، أن نحيي فيهم خُلُق الحياء، وعلىٰ رأس ذلك الحياء من الله، فهو لب الصيام وروحه، وخلق الصائمين وسمتهم، وقد قال النبي ﷺ: (يا أيها الناس استحيوا من الله حق الحياء، قالوا يا رسول الله، إنا والله نستحي من الله حق الحياء، فقال الحياء أن تحفظ الرأس وما وعىٰ، والبطن وما حوىٰ، وأن تذكر الموت والبلىٰ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا)[١].

* ومن تعظيم حرمات الشهر ألا نحوِّله من شهر إمساك إلىٰ شهر استهلاك، ومن موسم ذكر وصلوات، إلىٰ موسم غفلة وشهوات، فيرتسم في مخيلة الأجيال أن شهر رمضان هو موسم الترف والترفيه، ومناسبة للسفاهات والتفاهات، التي تحول ليله إلىٰ نهار غفلة، وتَعطل نهاره إلا من شواغل الدنيا.

يمكنك أن تجعل من رمضان - أخي المسؤول عن رعيته - برنامجاً مطولاً من ثلاثين يوماً، فتحوله إلي مخيَّم منزلي، لدورة مكثفة للأسرة، تعيد فيها ربطهم - صغاراً وكباراً - بالقرآن، فتتعاهد أحوالهم فيه، وتراجع معهم ماحفظوه، وتسترجع منهم ما نسوه، وتناقشهم فيما فهموه وتعلموه، فإذا كان خيرالناس من تعلم القرآن وعلَّمه - كما أخبر النبي ﷺ في قوله (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[٢]، فإن أولىٰ الناس بتعلُّم القرآن هو أنت - أخي الكريم - وأولىٰ الناس بتعليمك هم أهلك وأسرتك، وفي شهر الصيام فرصة سانحة لإعادة تقويم حال

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٨) في سننه وأحمد في مسنده (٣٦٦٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٢٧).

البيوت مع القرآن.

وفي برنامج رمضان المنزلي، يمكنك أن تعيد تأهيل أهلك لسلوك درب الاستمساك بالهدي النبوي، ولتكن البداية ربطهم بهدي النبي ﷺ في الصلاة والصيام، ويمكنك في برنامج رمضان المنزلي أيضاً أن توطن أسرتك على أخلاقيات الإسلام، من خلال التآلف مع أخلاقيات الصيام التي تحض على حفظ الأسماع والأبصار والأفئدة، وتدعو إلى الجود والسماحة ولين الجانب وحب الخير للناس، وفي برنامج رمضان المنزلي أيضاً تستطيع تعويد أهلك وأبنائك على تعظيم الحرمات الدينية، بتعظيم حرمة رمضان الزمانية، فمن يصون رمضان لله، يصون ما بعده وما قبله لله، فالقربى من الله والزلفى إليه، لا تقتصر على شهر دون شهر.

مسؤولية الآباء نحو الأهلين والأبناء في رمضان، ليست في التوسعة عليهم في أمور الدنيا فحسب، بل تسبق إلى ذلك مسؤوليتهم في تعريض الأهل والأبناء لواسع رحمة الله، ومزيد إكرامه للطائعين المتنافسين في القربى:

يا جامع المال لأولاده	**يخشى عليهم شمت حساده**
ولا يبالي كيف كان الغنى	**يغتر بالله وإبعاده**
اسمع مقالاً سوف تحظى به	**إن أنت لم تعمل بأضداده**
بنوك إن لاذوا بمولاهم	**وتابعوا منهاج إرشاده**
فالله يكفيهم ويحميهم	**والله لا خلف لميعاده**
وإن يحيدوا عن سبيل الهدى	**وقابلوا الدين بإفساده**
فقد يكن مالك عوناً لهم	**في طاعة الهوى وأجناده**

(ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، واجعلنا للمتقين إماما... آمين)

(١٢)

أرحامك في رمضان

صله الأرحام ليست شيئاً هامشياً في حياة المسلم، فإحدىٰ المعالم الكبرىٰ في رسالة الإسلام هي صلة الأرحام، فعندما سأل هرقل عظيم الروم أبا سفيان بن حرب ـ وكان لا يزال مشركاً ـ عن أحوال الرجل الذي بُعث فيهم، كان من ضمن سؤالات هرقل أن قال له: «وبم يأمركم» فقال أبو سفيان: «يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف»(١). وعندما سأل عمرو بن عبسة رسول الله ﷺ عن غايات رسالته قال: (أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يُوحد الله لا يُشرك به شيء)(٢).

إذا نزغ الشيطان بين ذوي الأرحام، فقطَّعوا ما بينهم من صلة وبِر، فلا ينبغي التسليم بتلك الهزيمة والوقوف عند تلك النهاية، بل لابد من بذل المستطاع من مساعي الصلح والإصلاح، واستغلال مناسبات الخير ومواسم الطاعات التي ترق لها القلوب وتلين فيها المشاعر، لكي نصل ما انقطع من حبال الوصال، ونكون من العاملين بقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

فصلة الأرحام برهان علىٰ صلاح الباطن بالتقوىٰ والخوف من الله، وصلاح الظاهر بحسن الخُلق مع عباد الله. وقد استنبطت خديجة ـ رضي الله عنها ـ من أخلاق رسول الله ﷺ مع أرحامه وأهله وجيرانه ما أكد لها أن ما جاءه هو وحي من عند الله، فعندما شكا إليها خوفه وارتياعه من نزول الوحي قائلاً: زمِّلوني زمِّلوني، دثِّروني دثِّروني، خففَّت من روعه قائلة: (كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٥٣) (٥٩٨٠)، ومسلم (١٧٣٣).
(٢) أخرجه مسلم (٨٣٢).

لتصل الرحم، وتحمل الكَل، وتُكسب المعدوم، وتُعين على نوائب الحق)[١].

والتعبد بصلة الأرحام من أجلِّ أعمال البرِّ المقرِّبة إلى الله - عز وجل -، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: دلني على عمل يدنيني من الجنة ويباعدني من النار، فقال له: (تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصل ذا رحمك) فلما أدبر الرجل قال رسول الله ﷺ: (إن تمسَّك بما أُمر به دخل الجنة)[٢].

ومع أن صلة الأرحام من أوسع سبل السلام الموصلة إلى دار الخلود، فإن قطعها من أسرع الطرق الموصلة للهلاك في الدنيا والآخرة، ولهذا اقترن قطع الأرحام بالإفساد في الأرض، فقال - تعالى -: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [**محمد**: ٢٢ - ٢٣]، وقد توَّعد رسول الله ﷺ قاطع الرحم فقال: (لا يدخل الجنة قاطع رحم)[٣].

وكثير من الناس يستسهلون قطيعة الأرحام، وربما تمر عليهم الأسابيع والشهور، بل السنون الطوال وهم مقيمون على تلك المعصية، ذاهلون عن حقيقة أن خصومتهم مع ذوي أرحامهم ستتحول إلي خصومة بين يدي الملك الجبار جل وعلا، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك، قالت بلى، قال فذاك لك، قال رسول الله ﷺ، فاقرأوا إن شئتم، ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [**محمد**: ٢٢ - ٢٣])[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٥٤)، ومسلم (١٦٠).

(٢) رواه مسلم (١٣).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦) و (٤٦٣٤)، واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٨٧)، ومسلم (٢٥٥٤).

إن الله ـ تعالىٰ ـ يصل من وصل رحمه، ويجعل راحة نفسه في تلك الصلة، ولكن هذه الصلة تحتاج إلىٰ جهد كبير للإبقاء عليها صافية دون نزغات أو نزاعات، وتحتاج إلىٰ جهد أكبر لإعادتها إلىٰ ما كانت عليه إذا طغت تلك النزغات والنزاعات، حيث تبرز الحاجة لإصلاح ذات البين، ومن هنا اكتسب إصلاح ذات البين منزلة عالية من منازل الطاعة والإحسان، حتىٰ قال ـ سبحانه ـ: ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤].

ورمضان من أعظم مناسبات هذا الإصلاح وذلك الوصال، فموسمه مهيأ للبر والصلة وحسن الخصال في علاقات الأهل والأرحام، وبخاصة إذا كان البر المطلوب والصلة المقصودة متعلقة بالوالدين، فإن أسوأ أنواع القطيعة، قطيعة الوالدين، عقوقاً لهما أو انصرافاً عنهما أو إمساكاً عن الإحسان إليهما كما أمر الله، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤]. والآية تنبه بأدنىٰ حقوق الوالدين علىٰ أعلاها.

إن رمضان قد يأتي والعاق مقيم علىٰ عقوقه لوالديه، فأي صيام ينفعه، وأي قيام يفيده، وقد أقام علىٰ اقتراف أكبر الكبائر بعد الشرك، بنص الكتاب والسنة؟ فمثلما قرن الله تعالىٰ الإحسان إلىٰ الوالدين بالتوحيد في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فقد قرن رسول الله ﷺ عقوق الوالدين بالشرك في قوله ﷺ: (ألا أخبركم بأكبر الكبائر؟ قالوا بلىٰ يا رسول الله قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين)[١].

أحسن أيها الصائم صحبة والديك ومعاملة أرحامك، فذلك من إحسان

(١) أخرجه البخاري (٦٢٧٣)، ومسلم (٨٧).

صيامك، وإذا دخل عليك رمضان وعندك من الوالدين أحدهما أو كلاهما، فلا تضيع صيامك بقطعهما، بل صل نفسك بوصلهما، فالجنة في رضائهما، وبخاصة تلك الأم التي لا تُؤَم الجنة دون رضاها ولا يشم شذاها مَنْ آذاها، فقد قال النبي ﷺ للذي جاءه يستشيره في الغزو (هل لك من أم؟ قال: نعم. قال: فالزمها فإن الجنة تحت رجليها)[١].

إذا كان رمضان شهر الطاعات، فلتكن طاعة الصلة بارزة فيها، دون تعلل بارد أو ترخص جافٍ، فهناك من يتعللون في قطيعة أرحامهم بأن أرحامهم بدأوهم بالقطيعة، وهؤلاء أخطأوا أولاً في أنهم قابلوا الإساءة بالإساءة ولم يقابلوا الإساءة بالإحسان، وأخطأوا ثانياً في أنهم ساووهم في معصية قطيعة الرحم، وأخطأوا ثالثاً في أنهم ساووا حرمة رمضان بغيره من الأزمان في استمرار قطيعة الأرحام، وأخطأوا رابعاً في أنهم ظنوا أن الوصال لا يصلح أن يُكافأ به من يُقاطع، مع أن رسول الله ﷺ قال: (ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها)[٢].

وإلى جانب تعلل بعض الناس في قطع الأرحام باستحقاق أهليهم للقطيعة؛ فإن هناك من يتخوفون من إراقة ماء وجوههم إذا ردهم أهلون جاحدون، لا يقبلون منهم صلحاً ولا يلينون لهم جانباً، وفي مثل هؤلاء؛ ورد أن رسول الله ﷺ جاءه رجل فقال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، فقال عليه الصلاة والسلام: (إن كنت كما تقول فكأنما تسفهم المَلْ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك)[٣].

(اللهم تقبل برنا بوالدينا وارحمهما كما ربونا صغاراً، وارحمنا بصلة الأرحام، وأصلحنا لنصلح بين الناس ... آمين)

---

(١) رواه النسائي (٣١٠٤)، وصححه الألباني في صحيح النسائي (٢٩) وأخرجه ابن ماجه (٢٧٨١).

(٢) رواه البخاري (٥٥٣٢)، (٥٩٩١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٦٤٠)، ومعنى تسفهم المل، أي تطعمهم رماداً حاراً.

(١٣)

إخوانك في رمضان

الألفة والتراحم بين المسلمين شريعة ودين، وقد أودع الله في شريعتنا مُثلاً وأخلاقاً تقربنا دائماً من الوفاق والتآلف، وتباعدنا عن الشقاق والتخالف، بحيث أننا لو امتثلنا لهذه المُثل، وتخلقنا بهذه الأخلاق لكنا دائماً على قلب رجل واحد، ينصر الله به الحق ويؤيد به الدين، قال - تعالى -: ﴿**هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾ [**الأنفال**: ٦٢ - ٦٣].

والألفة بين الأخوة ليست قدراً مقطوعاً عن الأسباب، بل هي ثمرة شرع يُمتثل، وواجبات تُؤدى وأوامر تُطاع، تقضي بأن: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه)[1] وتقضي بأن يكون (مَثَل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالحمى والسهر)[2].

أخي الصائم - أختي الصائمة - أرى فيكما الحرص الشديد في شهر الصيام على الظفر بكثير من المنح الإلهية والعطايا الربانية من خيري الدنيا والآخرة، فأنا وأنت، وهو وهي؛ نريد فيه العفو ونطمع في الصفح، ونرجو الستر ونرنو إلى الغنى عن الناس؛ ونطمح في قضاء حوائجنا، وسد خلتنا وتنفيس كربنا، وتيسير أمورنا.

ولكني أرى كل ذلك غير بعيد المنال منك، ولا شديد المحال عليك، فأنت تحوز مفاتحه، وتملك أسباب استجلابه، وذلك بأن تعطي للناس ما تريد أن تعطاه من رب الناس، فالعفو بالعفو، والصفح بالصفح، والستر بالستر، والتيسير

---

(١) رواه البخاري (٢٢٦٢)، ومسلم (٤٦٧٧).

(٢) رواه البخاري (٥٥٥٢)، ومسلم (٤٦٨٥) واللفظ له.

بالتيسير. . . الكرم بالكرم، والرحمة بالرحمة، والفَرَج بالفَرَج، وكل إحسان لا يُجازىٰ إلا بالإحسان، فالجزاء من جنس العمل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

تأمل هذه المعاني في أقوال إمام الهُدىٰ ﷺ فقد قال عليه الصلاة والسلام: (من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كُربة من كُرَبِ يوم القيامة، ومن يسَّر علىٰ معسر، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[1]، وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (من كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته)[2]، وقال: (من أقال مسلماً أقال الله عثرته يوم القيامة)[3]، فهكذا يجازي المحسنون بالإحسان، والميسرون بالتيسير، والكرماء بالكرم، وحتىٰ الرحمة، لا تنزل إلا علىٰ المتعاملين بالرحمة: (إنما يرحم الله من عباده الرحماء)[4]. فكل عمل في إصلاح أمور المسلمين، هو في الحقيقية إصلاح للمرء من شئون نفسه في الدنيا والآخرة، يوفَّىٰ إياه وهو في أشد الحاجه إليه، يقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ «يحشر الناس يوم القيامة أعرىٰ ماكانوا قط، وأجوع ما كانوا قط، وأظمأ ما كانوا قط، وأنصب ما كانوا قط، فمن كسا لله ـ عز وجل ـ كساه الله، ومن أطعم لله ـ عز وجل ـ أطعمه الله، ومن سقىٰ لله ـ عز وجل ـ سقاه الله، ومن عفا لله ـ عز وجل ـ أعفاه الله»[5].

إن كل تلك الأعمال الصالحات التي تدعم بها أواصر الأخوة والمحبة؛ يمكن

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦٧).

(٢) رواه البخاري (٢٢٦٢)، (٦٤٣٧)، ومسلم (٤٦٧٧).

(٣) رواه أحمد (٧١٢٢)، وأبو داود (٣٠٠١)، وابن ماجه (٢١٩٠)، والحاكم (٢/ ٤٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٤) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٩٢٣).

(٥) رواه المنذري في الترغيب والترهيب، (٢/ ٦٦).

أن تكون ميداناً للتسابق، ينصب مضماره في رمضان، مسارعة إلىٰ هذه الخيرات إلىٰ جانب بقية الطاعات، من الذكر والدعاء والصيام وإقامة الصلوات ﴿أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] .

إن أخُوَّة الإيمان، ليست مجرد مشاعر شاغرة عن الأفعال، مجردة من الوظائف، بل لها مقتضيات ولوازم، مثلما لها دواعٍ وموجبات، ومن لوازم الأخوة الإيمانية؛ الولاء والنصرة، والنصيحة والمحبة التي هي أوثق عُرىٰ الإيمان، كما قال ﷺ (أوثق عُرىٰ الإيمان الحب في الله والبغض في الله)(١). ومن لوازمها أيضاً الصلة والإكرام لكل مسلم بحسب ماعنده من إسلام.

وفي رمضان يتميز معنىٰ التقارب والتكافل، انبعاثاً من الأخوة في الدين، فإطعام الطعام والاجتماع عليه، والتراص للقيام مع الجماعة فيه، وكذا بذل الندىٰ، وكف الأذىٰ، وإعطاء الصدقات، وإيتاء الزكوات، وإجابة النداء، والتشارك في الدعاء، كل ذلك له تعلق بدعم الصلة والإخوة بين أهل الإيمان، بل إن الصيام في حد ذاته بشكل جماعي علىٰ مستوىٰ الأمة في الشهر الواحد، يوحد المشاعر ويقرب القلوب، فالمسلمون إذا كانوا في بلد واحد صاموا سوياً وأفطروا سوياً فكانوا سواء في الإمساك والجوع، وسواء في الإفطار والشبع، فإذا ذهبوا للصلوات والجماعات في الفرائض والسنن، قاموا لله جميعاً، إخوة متراصين متواصلين، فإذا انتهىٰ الشهر أفطروا وكبروا جميعاً فرحين شاكرين.

رسالة رمضان إليك إذن ـ أخي الصائم ـ أن انتبه؛ فإنك فرد في جماعة كبيرة، وكل فرد في جماعة المسلمين تلك؛ له عليك حقوق، كما أن لك تجاهه واجبات، وأولىٰ لك وأحرىٰ بك أن تتحرىٰ أحوال إخوانك في شهر الجود

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٢٧٢)، والصغير (٦٢٤) من حديث ابن مسعود، وله شاهد من حديث البراء وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٩٨) بمجموع طرقه.

وتتفقد احتياجاتهم في شهر الكرم.

* فمن إخوانك من قد لا يجد تمرات يفطر عليها، أو مذقه لبن يبل ريقه بها، بينما قد تتزاحم الأصناف على مائدتك، فلا تدري أي صنف تأخذ وأي نوع تدع.

* قد تتقلب في مراتع الراحة آمناً، وفي منازل الهدوء والسكينة مطمئناً، وفي إخوانك من ينامون تحت مطارق القلق، ويصحون على هجوم المخاطر، في بلدان تتلون فيها الابتلاءات، خوفاً وجوعاً وبرداً وحراً، مع نقص في الأموال والأنفس والثمرات.

* وقد تتعدد مراكبك، وتتنوع مفارشك، وتتلون أصناف متاعك وأقسام أموالك، ومن إخوانك من لا يجد مثوىً يؤويه، أو مسكناً يداريه، أو مركباً يحمله إلى مسيس حاجته وعاجل ضرورته.

* وقد تهنأ بالعافية والصحة، في رفاه وسعد، وطمأنينة ورغد، وغيرك من الإخوان يقارعون الشدائد، ويقاسون المرض، ويتشوقون إلى كرام يباشرون أحوالهم، أو أوفياء يتذكرون معاناتهم.

* وفي أخريات الشهر - أخي الصائم - قد تحار في أي شيء تختار لأبنائك من طيب المطعم والملبس واللُعب، ولك أخ آخر يحتار، أيَّ أبنائه يعطي وأيهم يمنع من ضيق ذات اليد وشح أولي النعم.

أخي الكريم: عندما تجود على إخوانك فإنك تجود على نفسك، وأنت بعطائك تقرض رب العالمين قرضاً حسناً، سوف يوفيه لك، في يومٍ يفر المرء فيه من أخيه وأمه وأبيه، سوف تلقى عطاءك وتقطف ثمرة جودك في يوم فقرك وظرف ضرورتك: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

(اللهم اجعلنا من المعتصمين بك، المتحابين فيك المتواصلين في طاعتك ... آمين)

(١٤)

أعداؤك في رمضان

مثلما لك إخوان أولياء، فإن لك ـ لا محالة ـ أصنافاً من الأعداء، وما من موسم من مواسم العام يعان فيه الإنسان على أعدائه مثل شهر الصيام، فعدو الإنسان الأكبر، وهو الشيطان الرجيم وذريته الملاعين، يقيَّدون في رمضان، ويمكَّن المؤمن من إلحاق الهزيمة بهم في هذا الشهر الكريم، ليكون في ذلك دُربة له على مواجهتهم في بقية العام، قال رسول الله ﷺ: (إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلِّقت أبواب النار، وصفِّدت الشياطين)[١].

وتصفيد الشياطين أو سلسلتهم، يكون على ظاهره من حبسهم عن الناس، ويكون بإغلاق منافذهم التي يلِجون منها على النفس البشرية عن طريق الشهوات والرغبات، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «الصوم فيه تزكية للبدن، وتضييق لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت في الصحيحين: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء)»[٢].

فالصيام في رمضان وفي غير رمضان؛ له خصوصية في التضييق على الشياطين، أما رمضان بذاته، فإن عتاة الشياطين لا يُضيَّق عليهم فقط، بل يحبس مردتهم حقيقة عن الناس. وبحبسهم يكون العبد المؤمن قد كُفي أكبر أعدائه في هذا الشهر وأُعين عليه، ويبقى في حاجة إلى الاستعانة بالله على الهوى والنفس التي لا تُسلسل ولا تُكبل.

والمعركة الكبرى للإنسان مع الشيطان لا تنتهي، ولعل في (هدنة) رمضان، فرصة لالتقاط أنفاس الإيمان، لجولات أخرى يُرغم فيها أنف اللعين، وتعان

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٦٦)، (٣٠٣٥)، ومسلم (١٧٩٣)، واللفظ له.

(٢) تفسير ابن كثير الآية ١٨٣ من سورة البقرة، والحديث أخرجه البخاري (٤٦٧٧)، (٤٦٧٨)، ومسلم (٢٤٨٥)، (٢٤٨٦).

النفس على الصمود أمام نزغه ونفثه ونفخه.

ومن تأمل في معاني الصيام، وجد مزيد اهتمام بأمور ثلاثة في هدي النبي ﷺ في رمضان، هي في الحقيقة أمضى الأسلحة ضد الشيطان في أي زمان أو مكان، وهذه الثلاثة هي: كثرة الذكر المانع من الغفلة، والاقتصاد المنافي للإسراف، وإقبال المرء على إصلاح ذاته، دون الانغماس فيما لا يعنيه مما يضيِّع الأوقات ويفوِّت الطاعات.

فهي إذن ثلاثة أسلحة، يستعين بها الإنسان على مواجهة الشيطان وهي: الذكر والاقتصاد وترك مالا يعنيه، فالأول وهو الذكر، هو مقصود القيام وتلاوة القرآن في رمضان، وهو يكسر أكبر مصايد الشيطان وهي الغفلة، لأن العبد إذا ذكر الله خنس الشيطان، وإذا غفل وسوس.

والثاني وهو: الاقتصاد: هو من مقاصد الصيام في رمضان، وهو يضيِّع على الشيطان فتنة الإنسان وإشغاله بالفضول: فضول الكلام، وفضول الطعام، وفضول المنام، وفضول النظر وفضول السماع. والفضول هو القدر الزائد عن المباح، أو الإسراف في المباح في كل ذلك، فعدم القصد فيه من أوسع مداخل الشيطان، ولهذا قال-تعالى-: ﴿وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

والسلاح الثالث وهو ترك المرء ما لا يعنيه: هو مقصود الاعتكاف في رمضان، سواء كان الاعتكاف المعهود في المساجد في العشر الأواخر، أو الانكفاف العام بالنفس عن الناس، والانشغال بعيوبها عن عيوبهم والاشتغال بمحاسبتها عن محاسبتهم، يقول ابن القيم-رحمه الله-: «كل ذي لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات: أحدها: التزيد والإسراف، فيزيد على قدر الحاجة، فتصير فضلة، هي حظ الشيطان ومداخله إلى القلب، وطريق الخلاص من ذلك الاحتراز من إعطاء النفس فوق مطلوبها من غذاء أو نوم أو لذة أو راحة، فمتى أغلقت هذا الباب حصل الأمان من دخول العدو. الثانية:

الغفلة، فإن الذاكر في حصن الذكر، فمتىٰ غفل، فتح باب الحصن فولجه العدو، فيعسر عليه أو يصعب إخراجه. الثالثة: تكلف ما لا يعنيه في جميع الأشياء»[١].

إن تكبيل مردة الشياطين، فيه تسهيل علىٰ المؤمنين بأن يتقوا الشر الأكبر الذي يأتيهم من الشياطين الكبار، ليتفرغوا هم للشياطين الصغار، سواء كانوا من الجن أم من الإنس، فهي فرصة علىٰ كل حال، لا تكرر إلا كل حَوْل لمدة شهر، يسلسل فيه المردة ويكبِّل فيه العتاة، يقول ابن رجب: «أبشروا يا معشر المسلمين فهذه أبواب الجنة الثمانية في هذا الشهر لأجلكم قد فتحت، ونسماتها علىٰ قلوب المؤمنين قد تفتحت، وأبواب الجحيم كلها لأجلكم مغلقة، وأقدام إبليس وذريته من أجلكم موثقة، اقصموا ظهره بكلمة التوحيد، فهو يشكو ألم الانكسار في كل موسم من مواسم الفضل، ففي هذا الشهر يدعو بالويل لما يرىٰ من تنزل الرحمة ومغفرة الأوزار، غلب حزب الرحمن، وهرب حزب الشيطان»[٢].

ويبقىٰ عدُوان للإنسان، بعد عداوة الشيطان، وهما: النفس الأمارة بالسوء، والهوىٰ المضل، وللإنسان أيضاً عليهما أعوان، فالنفس الإمارة بالسوء يستعان عليها بالقلب الحي السليم، الذي ينازعها في منازعها، ويوجهها إلىٰ وجهات المعالي، بترفعه عن سفاسف الأمور.

ولا ينبغي الاستهانه بعداوة النفس، فقد كان الرسول ﷺ يعلمنا أن نستعيذ من شرها قبل الاستعاذه من الشيطان نفسه، لقربها وخفاء شرها، فيقول: (اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت، رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه وأن أقترف علىٰ نفسي سوءاً أو أجره إلي مسلم)[٣]، فالشيطان يستدرج الإنسان بما تشتهيه نفسه، وفي الصيام تدريب علىٰ تهذيب شهوات النفس.

وأما الهوىٰ فيغالب بالعقل، فما أنعم الله - تعالىٰ - علىٰ الإنسان بالعقل، إلا

---

(١) الفوائد لابن القيم، ص ١١٩، بتصرف يسير.

(٢) وظائف رمضان، ص ٥٣.

(٣) أخرجه الترمذي كتاب الدعوات، رقم (٣٤٥٢).

لأنه عقال للهوىٰ، يمنعه من الخفة التي تطير به إلىٰ الهاوية، فما سُمِّي الهوىٰ بذلك إلا لأنه يهوي بصاحبه إلىٰ كل هاوية ويقوده إلىٰ كل داهية، حيث يغطي الهوىٰ العقول - إذا أطيع - حتىٰ يُتخذ إلهاً من دون الله، ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣ - ٤٤].

والإنسان في استعانته بالله علىٰ شيطانه وهواه ونفسه، لابد أن يأخذ بالأسباب الشرعية المأمور بها من التحصن بالذكر، والتحلي بالعقل وتجديد الديانة والصيانة، مع دوام الاستعاذة واللجوء لله، وإظهار الافتقار إليه، ولسان حاله يقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، فالمرء يستعين بالأسباب التي أودعها الله في مخلوقاته، فيحمل أمضىٰ سلاح ضد أقوىٰ عدو. يقول ابن القيم - رحمه الله -: «ألقىٰ الله - سبحانه - العداوة بين الشيطان وبين المَلَك، والعداوة بين العقل والهوىٰ، والعداوة بين النفس الأمارة بالسوء وبين القلب، وابتلىٰ العبد بذلك، وجمع له بين هؤلاء، وأمد كل حزب بجنود وأعوان، فلا تزال الحرب سجالاً ودولاً بين الفريقين، إلىٰ أن يستولي أحدهما علىٰ الآخر، ويكون الآخر مقهوراً معه، فإذا كانت النوبة للقلب والعقل والملك فهناك السرور والنعيم واللذة والبهجة والفرح وقرة العين وطيب الحياة وانشراح الصدر والفوز بالغنائم، وإذا كانت النوبة للنفس والهوىٰ والشيطان، فهنالك الغموم والهموم والأحزان وأنواع المكاره وضيق الصدر»[1].

ونحن مُلجؤون إلىٰ خوض تلك الحروب كاملة في رمضان لما يكون بعد رمضان، وقد تكفَّل الله لنا فيها بالإمداد والإعداد، وجعل لنا من الصوم أقوىٰ ترس وأمضىٰ سلاح، كما قال عليه الصلاة والسلام (الصيام جُنة، كجُنة أحدكم من القتال)[2]. وكما قال (الصوم جُنَّة حصينة)[3].

(اللهم حصِّنا بالصوم، واحمنا بالتقوى، وأعنا على أعدائنا وقنا شر أنفسنا ... آمين)

---

(١) الفوائد، ص ٦٠.

(٢) أخرجه النسائي كتاب الصيام، رقم (٢١٩٩).

(٣) رواه الترمذي (٢١٩٩)، (٢٢٠٠) وابن ماجه (١٦٢٩) وأحمد (١٥٦٨٢)، (١٥٦٨٧). وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٥٠١).

(١٥)
شهواتك في رمضان

صوم رمضان رحلة للروح، تتحرر فيها مدة شهر من أسر الشهوات، فالروح تكاد تغبن طيلة العام لحساب رغبات الجسد، فلا أقل من إنصافها شهراً بعد التنكر لها دهراً من ذلك الجسد اللصيق بشهواته ونزواته. والجسد نفسه في حاجة إلى رياضة خاصة يكفلها الصيام بما يشرع فيه من إمساك قسري عن الشهوات طيلة النهار في رمضان. وبترويض الروح والجسد، تجد النفس حاجتها من التربية والإعداد لتحمل أعباء الواجبات وثقل التكاليف.

إن طالب النجاة، يسير في طريق تكثر فيها العقبات، وتنتشر على حافاتها الآفات، وكل ذلك يحتاج إلى دُربة على تحمل مشقة السير إلى الله بمواجهة شهوات النفس ورغبات الناس، وما يؤزهما من نزغات شياطين الإنس والجن. ولا أحسن من شهر الصيام زماناً للتدريب على ذلك، قال الفخر الرازي في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]: «لعلكم تتقون الله بصومكم وترككم للشهوات، فإن الشيء كلما كانت الرغبة فيه أكثر، كان الاتقاء عنه أشق، والرغبة في المطعوم والمنكوح أشد من الرغبة في سائر الأشياء، فإذا سهل عليكم اتقاء الله بترك المطعوم والمنكوح، كان اتقاء الله بترك سائر الأشياء أسهل وأخف»[١].

الصيام يتسامى بالإنسان إلى تفضيل مرضاة الله على الميل الجبلِّي إلى رغبات النفس وشهواتها، وهذا جوهر التربية على الترقي في الإيمان، يقول ابن رجب الحنبلي: «الصيام مجرد ترك حظوظ النفس الأصلية وشهواتها الأصلية التي جبلت على الميل إليها لله ـ عز وجل ـ، ولا يوجد ذلك في عبادة أخرى غير الصيام، فإن اشتد توقان النفس إلى ما تشتهيه مع قدرتها عليه، ثم تركته لله في موضع لا يطلع عليه إلا الله، كان ذلك دليلاً على صحة الإيمان، فإن الصائم يعلم أن له رباً يطلع عليه في خلوته، وقد حرَّم عليه أن يتناول شهواته المجبول

(١) التفسير الكبير، للفخر الرازي، (٥/ ٧٦).

على الميل إليها في الخلوة، فأطاع ربه وامتثل أمره واجتنب نهيه، خوفاً من عقابه ورغبة في ثوابه، فشكر الله له ذلك، واختص لنفسه عمله هذا من بين سائر أعماله، ولهذا قال بعد ذلك: (إنه ترك شهوته وشرابه من أجلي)[١]. قال بعض السلف: «طوبى لمن ترك شهوة حاضرة، لموعد غيب لم يره»[٢].

وفي التقرب إلى الله - تعالى - بترك شهوات النفس الأصلية فوائد ذكرها أهل العلم، منها: كسر النفس، فإن الشبع والري ومباشرة النساء تحمل النفس على الأشر والبطر والغفلة، ومنها: تخلي القلب للذكر والفكر، فإن تناول هذه الشهوات مع الإسراف فيها يقسي القلب ويعميه، ويحول بينه وبين أن يكون قلباً سليماً حياً، بل يستدعي هذا غفلته، ويذهب رقته، وربما يستجلب صلابته وقسوته.

ومن الفوائد أيضاً في ترك الشهوات الأصلية أياماً معدودات: أن الغني يعرف بترك الشهوات المقدور عليها قدر نعمة ربه عليه، بإقداره على ما منعه كثيراً من الفقراء، وعندما يمتنع عن ذلك عن قصد واختيار، فيجد فيه المشقة لساعات، يدرك معاناة من يُمنع عن ذلك عن قسر وإجبار لشهور وسنوات، فيذكّره ذلك بوجوب شكر نعمة الله الذي أغناه، وينبهه إلى الرحمة بأصحاب الابتلاء والمعاناة، فيؤاخيهم بمشاعره ويواسيهم بماله.

ومن الفوائد أيضاً في ترك الشهوات الأصلية بالصيام، أن ذلك يضيّق مجاري الدم، التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فتسكن بالصيام وساوس الشيطان، وتنكسر سورة الشهوة والغضب، وهذا هو السبب في وصف النبي ﷺ الصوم بأنه (وِجاء) في قوله ﷺ للشباب حال العجز عن الزواج (فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء)[٣].

وإذا كانت كل هذه الفوائد وغيرها، تجتني بتجنب الشهوات الجِبلّية الحلال

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٣٨) بلفظ (يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي)، وأخرجه مسلم (١٩٤٥).

(٢) وظائف رمضان، ص ١٧.

(٣) انظر: وظائف رمضان، ص ١٨. والحديث سبق تخريجه. والوجاء: كسر الشهوة وإضعافها.

في حال الصيام، فإن اجتناب غيرها من الشهوات - المحرمة في كل الأحوال - أعظم فائدة وأجل نفعاً، فهي أروح للروح وأنفس للنفس وأجدى للجسد، فما ضر الروح ولا أتلف النفس ولا أنهك الجسد مثل مقارفة الحرام.

قال ابن رجب - رحمه الله - «لما علم المؤمن الصائم أن رضى مولاه في ترك شهواته؛ قدَّم رضى مولاه على هواه، فصارت لذته في ترك شهواته لله، لإيمانه بإطلاع الله، وأن ثوابه وعقابه أعظم من لذة يتناولها في الخلوة إيثاراً لرضى ربه على هوى نفسه، بل إن المؤمن يكره ذلك في خلوته أشد من كراهيته لألم الضرب... وإذا كان هذا فيما حُرِّم لعارض الصوم من الطعام والشراب ومباشرة النساء، فينبغي أن يتأكد ذلك فيما حُرِّم على الإطلاق كالزنا وشرب الخمر وأخذ أموال الناس بالباطل وهتك الأعراض بغير حق وسفك الدماء المحرمة، فإن هذا يسخط الله على كل حال، وفي كل زمان ومكان»[1].

ومن عجيب أمر العابثين بحرمة الزمان في رمضان، أنهم يغررون بالأمة فيضاعفون أمامها في وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية، وجبات حافلة بالمفطرات المعنوية من مغريات الشهوات، فيقضي المرء أيام رمضان وهو يظن أنه صائم، وقد تسحر بالشرور وأفطر على الفجور، وتقلب في مساخط الله بين سحوره وفطوره، مع أن الله - تعالى - وسَّع على المؤمنين بالحلال، وأغناهم به عن الحرام في شهر الصيام وفي غيره.

والمفطرات المعنوية من الشهوات المحرمة في رمضان، ليست مقصورة على تلك المتعلقة بشهوات العيون والآذان والفروج، بل إن منها ما يتعلق بشهوات البطون، فقد تكون أموال الإنسان محرَّمة، فتُستجلب بها الأطعمة فتكون مثلها محرَّمة، والإنسان يخطئ كثيراً عندما يظن أن الطعام مجرد مواد تدخل في الجسد ثم تخرج منه، ويزداد خطؤه عندما يظن أن ما يدخل في جوفه من حلال أو حرام يكون سواءً، بحيث لا يؤثر على وظائف الأعضاء!!

إن حقيقة التقوى تقول إن أكل الحرام دمار للضمائر، وانقلاب في القلوب،

---

(١) المصدر السابق.

واعتقال للعقول، فالإنسان تضيع معالم إنسانيته التي كرمها الله، بالإكثار من المآكل والمشارب المحرمة، ولأمر يعلمه الله سميت أكثر أنواع الكسب الخبيث أكلاً، لأن المال الآتي منها يؤول إلى الأكل، فيتحول المال الخبيث إلى طعام خبيث يأكله الإنسان فيكون واقعاً في أكل الخبائث، وهو يظن أنه يطعم حلالاً محضاً.

* فالمال المكتسب من أموال اليتامى أكل، نهى القرآن عنه، قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠].

* والمال المكتسب من الربا أكل، خوَّف القرآن منه، قال ـ تعالى ـ: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

* والمال المكتسب من الرشا أكل، بغَّض القرآن فيه، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

* والمال المكتسب من السُّحت والسحر والكهانة أكل، شنَّع القرآن عليه: ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٢].

* والمال المكتسب من الاسترزاق بالدين أكل، نزه الله المؤمنين عنه، قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤].

وهلاك الأمم، أفراداً وجماعات، يأتي من طريق إضاعة حق الله في ترك العبودية له، وإخضاع النفس لعبودية الهوى والشهوات بدلاً من ذلك، قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٥٩ - ٦٠].

(اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك واغننا بفضلك عمن سواك... آمين)

(١٦)

سمعك في رمضان

عقل الإنسان ونفسه وروحه وفؤاده، كل ذلك مرهون صلاحه بما يتسرب إليه من الأذن، فإذا سمع الإنسان طيِّباً، وصل الطيب إلى عقله ونفسه وروحه وفؤاده، وإذا استمع - منصتاً - إلى الخبيث؛ تسرب الخبيث إلى فؤاده وروحه، وترسب في عقله ونفسه.

لا تستمع إلا لقول صادق ... يغنيك عن خطل من الأقوال

فالأذن نافذة العلوم وخيرها ... أذنٌ وعت ذِكراً تلاه التالي

ولذلك كان السماع المحرَّم، من محظورات الصيام، وإن كان لا يدخل في مبطلاته بالمعنى الفقهي، فعندما تصوم الأذن عن سماع الحرام، فإنها تصون القلب ليقوم بواجب العبودية اللائق بالزمن الحرام في رمضان، وصون السمع عما يغضب الله حيئذ من واجبات الصيام لا من مستحباته ومندوباته، لأن السمع إذا كان مسؤولاً طوال العام كما في قوله - سبحانه -: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦] فإن مسؤولية الإنسان عنه في رمضان أوقع، وانتهاكه لحرمته أشنع. قال جابر - رضي الله عنه -: «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن المحارم»[١]، ومحرمات السماع هي الاستماع لكلمات الكفر وعبارات العصيان والألحان التي يغوي بها الشيطان.

ورمضان بكرامته وحرمته يستحق منك - أيها الصائم - أن تحفظه عن الباطل وسماعه في جلساتك ولقاءاتك، فكل باطل سماعه باطل، إذا كان استماع تلقٍ ورضاً وإعجاب.

يا أذن لا تسمعي غير الهدى أبداً ... إن استماعك للأوزار أوزار

---

(١) وظائف رمضان، لابن رجب الحنبلي، ص ٢١.

وقد جعل الله حفظ السمع من أخص صفات المؤمنين، ففي الصفات العشر التي وُصف بها المؤمنون في سورة (المؤمنون) يأتي الإعراض عن اللغو في المرتبة الثانية مباشرة بعد الخشوع في الصلاة، حيث قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [**المؤمنون**: ١ - ٣]، فالمؤمنون لسماعهم الخير، فهم (في صلاتهم خاشعون)، ولكي يحافظوا على ذلك؛ فهم (عن اللغو معرضون)، لأن سماع الشر يضيع رصيد القلب من سماع الخير، ويشوش على النفس قيم الحق. قال ـ تعالى ـ مزكياً فعل من طهروا أسماعهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [**القصص**: ٥٥].

وكما تتضاعف في رمضان مسؤولية الأذن في عدم سماع الباطل فإنها تعظم في سماع الحق، فالصلوات الجهرية، وصلاة القيام الجماعية، تقوم على حسن الاستماع لما يُتلى، وكذلك حِلَق الذكر ومجالس العلم، تقتضي يقظه السامع وحسن إنصاته.

وسماع القرآن عبادة عظيمة تنزل القرآن بالأمر بها والثناء على أهلها، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [**الأعراف**: ٢٠٤]. وقد تنزَّل القرآن بالثناء على الجن وهم في عالمهم المحجوب، يشكر لهم حسن استماعهم وجميل إنصاتهم للقرآن وهو يتلى، ونزلت بشأن ذلك سورة من القرآن هي سورة الجن ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [**الجن**: ١] تُرى.. مَنْ من الإنس قالوا عندما استمعوا القرآن مثل ما قالت الجن ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [**الجن**: ١ - ٢] كم من الإنس وعوا ما وعوا، ودعوا إلى ما دعوا؟.. لقد دعوا قومهم إلى الاستجابة لذلك الرشد الذي يهدي إليه القرآن فقالوا: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [**الأحقاف**: ٣١].

إن استماع القرآن يتحقق الانتفاع به عندما تتحقق شروط وصوله من الأذن إلى القلب، فالانتفاع به يحتاج حضور قلبك وانصات سمعك، ويقظة عقلك، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

قال ابن القيم - رحمه الله -: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه من تكلم به سبحانه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله، وذلك أن إتمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد، فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ [ق: ٣٧] إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا، وهذا هو المؤثر، وقوله ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال - تعالى -: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ۝ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠]، أي حي القلب، وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أي وجه سمعه وأصغى حاسته إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام، وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي شاهد القلب ليس بغافل ولا ساه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط، وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر»[1].

إن أمر الله للمؤمنين بأن يحسنوا استماع كلامه في قوله - عز وجل -: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] هو تشريف لتلك الأسماع وتطهير لها، وتلك الأسماع نفسها، منة تحتاج إلى امتنان، ونعمة توجب الشكر والعرفان، قال - تعالى -: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، وشكر الله - تعالى - على نعمة السمع تكون بقصره

---

(١) الفوائد، للإمام ابن قيم الجوزية، ص ٣.

على الخير، ومنعه من الشر، ورمضان مجال رحب لتحلية الأسماع بالطاعات، وتخليتها عن المخالفات، فعلى السمع عبوديات مخصوصة تحدث عنها ابن القيم رحمه الله: «وهي وجوب الإنصات والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع خطبة الجمعة في أصح قولي العلماء، ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة كرَدِّه، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك، - ومن المحرم أيضاً - استماع أسرار من يهرب عنك بسره، ولا يحب أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمناً لحق لله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعين نصحه وتحذيره منه، وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب اللاتي تخشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة من شهادة أو معاملة أو استفتاء أو محاكمة أو مداواة ونحوها، وكذلك استماع المعازف وآلات الطرب واللهو كالعود والطنبور ونحوها، ولا يجب عليه سد أذنه إذا سمع الصوت وهو لا يريد سماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات، فحينئذ يجب تجنب سماعها وجوب سد الذرائع . . . وأما السمع المستحب، فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض، والمكروه عكسه، وهو استماع كل ما يُكره ولا يعاقب عليه، والمباح ظاهر»[١] .

(اللهم بارك لنا في أسماعنا وأبصارنا، وقوتنا أبداً ما أحييتنا واجعلها الوارث منا.... آمين)

---

(١) مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية، (١/ ١١٥، ١١٦).

(١٧)
بصرك في رمضان

شهر رمضان، شهر للصبر والمجاهدة، ومن الصبر والمجاهدة فيه، أن يصبر المرء نفسه على غض البصر، ويجاهدها على ذلك، لعل ذلك يورِّثه سجية معتادة على هذا الخُلُق الإيماني العظيم، الذي يعمُرُ القلب بالخشية ويزوده بالتقوى التي هي روح الصيام.

وقد أمر الله ـ تعالى ـ المؤمنين، وأمر كذلك المؤمنات بغض البصر، لأن ذلك مقتضى الإيمان والمراقبة، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣٠ - ٣١]. قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «هذا أمر من الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين، أن يغضوا من أبصارهم، وأن يغمضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعاً»(١).

إن حفظ البصريعين على حفظ الفرج، وحفظهما معاً يحفظ الإنسان من الندامة يوم القيامة، فالنظرة المحرمة إذا كانت سهماً مسموماً، فإن المتأذي بذلك هو القلب، إذ كلما أُطلق البصر في الحرام؛ أوغل القلب في الظلام، وعلاه الدغل والران، وربما ارتد هذا الران المظلم سواداً في البصيرة، تعمى به عن رؤية الحق، أو تعشى عن إدراك الهُدى، حيث تختلط الأمور على المرء، فلا يكاد يعرف معروفاً أو ينكر منكراً، أو يتذوق للحق حلاوة، ولا للباطل مرارة، ولهذا قال من قال من السلف: «من حفظ بصره، أورثه الله نوراً في بصيرته»، وهو معنى مستفاد من قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨] «أي: تمسكهم

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٢٨).

بذلك أزكىٰ لهم وأطهر، لأنه من باب ما يزكون به، ويستحقون الثناء»[١] وقد قال النبي ﷺ: (ما من مسلم ينظر إلىٰ محاسن امرأة، ثم يغض بصره، إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها)[٢].

إن حلاوة الإيمان تورِّث أحاسيس سامية، فيها عوض وسلوىٰ عما يخدع به الشيطان من اللذائذ المحرمة، لكن الله ـ تعالىٰ ـ يعلم ضعف الإنسان، ويعلم أن الامتناع التام عن النظر غير ممكن من المكلف البصير، ولهذا كان أمره سبحانه أن ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، ولم يقل: يغضوا أبصارهم، فاكتفىٰ منا بالجد في المجاهدة في كف النظر عن الحرام، بحيث إذا أصاب البصر نظرة إلىٰ حرام، نازعت النفس صاحبها حتىٰ لا يثنِّي هذه النظرة، تعظيماً لأمر الله. وقد قال النبي ﷺ لعلي ـ رضي الله عنه ـ: (يا علي: لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولىٰ وليست لك الآخرة)[٣].

وغض البصر وحفظ الفرج وإن كان فيه كف للنفس عن أسباب المهالك؛ فإن له أيضاً مقابلاً، بل إن مقابله لا يقابله شيءمن متاع الدنيا ولو حيزت، ولا تعادله زخارفها ولو اكتملت، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)[٤]. ولما كان غض البصر هو أكبر معين علىٰ حفظ الفرج؛ قدِّم غض الأبصار علىٰ حفظ الفروج في الآية، لأن النظر بريد الفاحشة، ورائد الفجور، والبلوىٰ فيه أشد والقدرة عليه أصعب[٥].

---

(١) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٦).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢١٢٤٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وفي سنده ضعف، إلا أن الحافظ ابن كثير قال: «وروي مرفوعاً عن ابن عمر وحذيفة وعائشة (رضي الله عنهم جميعاً)، ولكن في أسانيدها ضعف، إلا أنها من الترغيب، ومثله يتسامح فيه» تفسير ابن كثير، (٣/ ٢٨٢).

(٣) رواه الترمذي (٢٧٠١) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٤) رواه البخاري (٥٩٩٢).

(٥) انظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٦).

قد يظن البعض أن في غض البصر تضييقاً على النفس، وتحريجاً على الناس في حرياتهم التي يرون أن منها التمتع الطليق بمباهج الدنيا، ولكن المتأمل في حكمة التشريع يرى في ذلك الهدي القرآني توسيعاً على الخلق، عندما يُعوَّضون عن ذلك سلامة في الصدور وصحة للقلوب، ويكافأون بما هو أحسن متاعاً وأبقى نعيماً عند الله من ذلك التوسع في الحرام، وإلا فكيف يُنال متاع وسرور الجنان وحورها، بغير امتناع عن شرور الدنيا وخداعها؟! صحيح أن النظرات في الدنيا قد تُكسب لذة عابرة وسعادة موقوتة، إلاأن هذه النظرات المحرمات يمكن أن تضيع على المرء لذة النظر إلى وجه الله الكريم، وهي خسارة لا تعدلها خسارة في الدنيا ولا في الآخرة، فالاستقامة على الطاعة ومنها غض البصر يفوز فيها المرء بنعيم النظر إلى وجه الله الكريم، ولو لم يكن لذلك فائدة إلاهذا الأمر، لكفاه خطراً وشرفاً، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [**القيامة**: ٢٢ – ٢٣]، وكيف يفوز بهذا النظر من لا يملك قلباً سليماً، لم تخرِّقه السهام المسمومة من نظرات وخطرات وخطوات إبليس اللعين. ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [**الشعراء**: ٨٨ – ٨٩].

قد يتيح إطلاق النظر، لأصحابه ـ كما يتوهمون ـ حظاً من المتعة والسعادة، إلا أن تلك السعادة قد تستحيل شقاء وتعاسة في الدنيا قبل الآخرة، لأن صاحبها لم يأت البيوت من أبوابها، ولم يصب الصواب في البحث عنها، ولهذا قال من قال من السلف: «رُبَّ لذة ساعة أورثت ذلاً طويلاً»، وبمثل هذه اللذة المذلة، تضييع لحظات لا تعوض، في رمضان وفي غير رمضان، حيث يجري المرء في لهاث وراء سعادة يشوبها الشقاء، ومتعة تكدرها الذنوب.

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً ... إلى كل عين أتعبتك المناظر

أصبت الذي لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

لا تكونن من صُوَّام البطون ومفطري القلوب في رمضان، يصوم بطنك عن الحلال من الشراب والطعام، وتصول وتجول في كل منظور حرام.

قال جابر ـ رضي الله عنه ـ: «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك سكينة ووقار، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء»[١]. نعم .. لا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

(اللهم اجعل في أبصارنا نوراً، وفي أسماعنا نورا وفي صدورنا نوراً، واجعل لنا يوم القيامة نوراً يانور السموات والأرض.... آمين)

(١) وظائف رمضان، لابن رجب الحنبلي، ص٢١.

(١٨)

لسانك في رمضان

لسانك له عبادة في رمضان، بعضها ذكر، وبعضها صمت، فالصمت من معاني الصوم، كما قالت مريم ـ عليها السلام ـ ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٦]، وصومها المنذور كان صمتاً وسكوتاً عن الكلام، أما الصمت المطلوب في صومنا فهو الإمساك عن ذنوب اللسان، والكف عن آفات النطق، فللنطق والكلام آفات هي حصائد الألسنة التي قال عنها النبي ﷺ: (وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟)[١]، وهذه الحصائد كثيرة، منها الغيبة والنميمة والكذب وكلمات الهمز واللمز والزور والازدراء والتحقير، وأشد من هذا كلمات الكفر والشرك التي يخلد بها المرء في الجحيم، إذا لم يخلص التوبة لرب العالمين.

وإذا لم يحفظ الإنسان لسانه من تلك الآفات المحرمة في صيامه، فماذا يفيده صومه، وهل تتحقق به التقوى المنشودة من الصوم؟! إن آفة واحدة من آفات اللسان وهي قول الزور، تذهب بروح الصيام وتزهقها، فقد قال رسول الله ﷺ: (من لم يَدَع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)[٢]، ولهذا نهى النبي ﷺ في حديث آخر عن تصديع جدار الصيام بتلك الآفات، فيصبح غير صالح لأن يكون جُنة أو وقاية، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (الصيام جُنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم)[٣]، فبيَّن النبي ﷺ أن (الرفث) وهو

(١) أخرجه أحمد (٢١٠٠٨)، (٢١٠٥١)، والترمذي (٢٥٤١)، وابن ماجه (٣٩٦٣)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤١٢).

(٢) رواه البخاري (١٧٧٠)، (٥٥٩٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٤٤).

الفحش ورديء الكلام وكذلك الفسق والجهل وما يترتب عليهما من إطلاق اللسان فيما لا يليق، كل ذلك يعطل الصيام عن أن يكون جُنة، أي وقاية من النار.

قال الإمام ابن الجوزي - رحمه الله -: «كم من صائم عن الطعام مفطر بالكلام، دائب على القيام لكنه مؤذ للأنام، فهو من لسانه وفعله مؤزور، وعلى صيامه وقيامه غير مأجور، أين زاغ عن الهدى ودال على سبيل الردى، بل أين من رانت الذنوب على قلبه ولم يبادر بالتوبة من ذنبه، ولم يخف عذاب ربه، ويحك يا مسكين: اغتنم شهر رمضان المتضمن بالرحمة والغفران، وانظر لنفسك يا مسكين قبل أن تصل إلى حلقك السكين»[1].

إنها أيام قليلة - أيها الصائم - فعظِّمها واغتنمها وحصِّنها من سيف اللسان وسهام النطق في الجد والهزل وفي الرضا والغضب وتمثل قول الشاعر:

سأصرف همتي بالكل عما ... نهاني الله من أمر المزاح
إلى شهر الخضوع مع الخشوع ... إلى شهر العفاف مع الصلاح
يُجازى الصائمون إذا استقاموا ... بدار الخلد والحور الملاح
وبالغفران من رب عظيم ... وبالملك الكبير بلا براح

إن رمضان فرصتك - أيها الصائم -، كي تعود لسانك على عبوديته، فعلى لسانك عبوديات خاصة، تتوزع بين أداء فروض وواجبات ومستحبات، وترك محرمات ومكروهات.

وقد ذكر الإمام ابن القيم هذه العبوديات وبيَّن أقسامها وما يتعلق بكل منها فقال: «وأما عبوديات اللسان الخمس فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن، وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها رسوله، كما أُمر بالتسبيح في الركوع

(١) بستان الواعظين، لابن الجوزي، ص ٣١٢.

والسجود، وأُمر أن يقول (ربنا ولك الحمد) بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد وأُمر بالتكبير، ومن واجبه: رد السلام، وفي وجوب الابتداء به قولان. ومن واجبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الجاهل وإرشاد الضال وأداء الشهادة المتعينة وصدق الحديث.

وأما المستحب: فتلاوة القرآن ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع وتوابع ذلك.

وأما المحرم على اللسان: فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها وتحسينها وشهادة الزور، والقول على الله بغير علم، وهو أشدها تحريماً.

وأما مكروهات اللسان: فالتكلم بما تركه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه[١].

إن شأن اللسان ليس كشأن سائر الجوارح، ولذلك فقد ورد في الحديث أن ابن آدم إذا أصبح، فإن أعضاءه كلها تكفِّر اللسان، تقول: (اتق الله، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا)[٢]. وأسهل فعل يمكن أن يقوم به الإنسان هو الكلام، ومع ذلك فإن حركة اللسان التلقائية الخفيفة، هي أثقل الأفعال تكلفة، ولذلك قيل: «الصمت حُكم وقليل فاعله».

الإكثار من الصمت هو سمت الصالحين، فهم لا يتكلمون إلا فيما يعنيهم، أو فيما تكون فيه الإفادة أوالاستفادة، ولما قال الرسول ﷺ لمعاذ - رضي الله عنه: (أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك)[٣]، كان بذلك يريد أن يعلمه ويعلم الأمة جميعاً تلك العلاقة القوية بين تقوى الله وحفظ اللسان.

---

(١) مدارج السالكين، للإمام ابن القيم، (١/ ١١٤، ١١٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٣١)، وأحمد (١١٤٧٢)، من حديث أبي سعيد الخدري، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (١٩٦٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٣٠)، وصححه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٣١).

وإذا كان الإمساك في الصيام يثمر التقوىٰ، وإمساك اللسان قد ربط بالتقوىٰ، فإن هذا يؤكد ما لصوم اللسان من تأثير في بعث الروح في صيام سائر الأركان، في رمضان وفي غير رمضان.

مشكلتنا أننا قد لا نتصور الثمن الباهظ الذي يمكن أن ندفعه لقاء امتلاء صحائفنا بحصائد الألسن وأرصدة الكلام، ولكن لتقريب الأمر؛ لنتصور أن (مكالماتنا) و (محادثاتنا) خلال عام مثلاً، جاءتنا في (فاتورة) كفاتورة الهاتف، لكن فيها عدد المكالمات ووقتها، وما فيها من حق وباطل، وخير وشر، وكم احتوت من ثواب، وكم اشتملت علىٰ إثم، فكم يا تُرىٰ ستكون صفحات تلك الفاتورة، وكم سندفع مقابل كل صفحة منها؟!

من العجائب أن أحدنا إذا تسلم فاتورة الهاتف التي تسجل مكالماته في دقائق لاتقاس بساعات وأيام عمره، ثم وجد تلك الفاتورة بدقائقها وثوانيها، عالية التكلفة فعلياً، تصبب عرقاً، وتأمل في مكالماته هذه التي جلبت عليه تلك التكلفة العالية... هل تستحق أن تدفع فيها هذه المبالغ، وهل كانت لها قيمة توازي تلك التكاليف؟!

بعض الناس يأخذ نفسه بحزم زائد، فيطلب أن يكون هاتفه للاستقبال فقط وليس للإرسال، حتىٰ لا يضطر لدفع تكاليف الإرسال، والحصيف يفعل هذا مع لسانه، عندما يحيل بعض مهامه إلىٰ الأذن، حيث يسمع أكثر مما يتكلم، فهو يخشىٰ ألا تكون له قدرة علىٰ سداد فواتير كلامه يوم الحساب.

إن فاتورة الحساب الأخروي علىٰ حصيلة كلامك وحصائد لسانك - أيها الصائم - بالغة التركيب والتعقيد، ومخرجك الوحيد للتخفف من ثقلها هو العمل بوصية نبيك ﷺ الحريص عليك، الرؤوف الرحيم بالمؤمنين عندما قال (أمسك عليك لسانك)[1].

(اللهم أطلق ألسنتنا بذكرك وشكرك والدعوة إلىٰ دينك، وكفها عما يردينا، وعما لا يعنينا... آمين)

---

(١) سبق تخريجه.

(١٩)
قلبك في رمضان

للفؤاد مسؤولية أمام الله، كمسؤولية السمع والبصر، فكما سيُسأل العبد منا عما يمر على سمعه وبصره، فسوف يسأل عما يقر في فؤاده وقلبه ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦] . أي سيسأل العبد عنها، وعما عمل فيها، وللفؤاد أو القلب مسئولية خاصة عن بقية الجوارح، لأنه المضغة التي (إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله)[١] .

وللقلب عبادة في رمضان كما لسائر الأركان، ولأنه سيد الأعضاء فإنه مخصوص بسيد العبادات وهو الإخلاص، فالإخلاص هو سيد العبادة، وليس ألصق بالإخلاص في العبادات من الصيام، لأنه عبادة بين العبد وربه، ولا يمكن أن يكون الصيام طاعة إلا بالإخلاص، ولعل هذا معنى قوله ﷺ حاكياً عن ربه - عز وجل -: (كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به)[٢]، قال القرطبي - رحمه الله -: «إنما خَصَّ الصوم بأنه له، وإن كانت العبادات كلها له، لأمرين باين الصوم بهما سائر العبادات:

أحدهما: أن الصوم يمنع من ملاذ النفس وشهواتها ما لا تمنع منه سائر العبادات.

الثاني: أن الصوم سر بين العبد وربه، لا يظهر إلا له، فلذلك صار مختصاً به، وما سواه من العبادات ظاهر، ربما فعله تصنعاً ورياء، فلهذا صار أخص بالصوم من غيره»[٣] .

---

(١) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٢٩٩٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) تفسير القرطبي، (١/ ٢٧٤).

إن على المرء أن يتحسس أحوال قلبه في رمضان، ويقيس ذلك على ما قبله ملتمساً مواطن قوته ومواضع ضعفه، ليدرك بهذا القياس هل له عبودية واحدة في رمضان وفي غير رمضان، أم أن معاملته لربه يداخلها الإجلال في رمضان، ويخالطها الإخلال في باقي شهور العام؟.

إن الأصل في عبوديتنا لله - تعالى - أن تقوم على إجلاله وتوقيره وتعظيمه، وهذا ينبغي أن يستوي في رمضان وفي غير رمضان، ولكننا في رمضان نستطيع أن ننمي ذلك التوقير في قلوبنا، لأن الصيام عبادة تقوم على مراقبة الله والحياء منه في السر قبل العلن. وتوقير الله - تعالى - طريقه توقير كلامه وكلام رسوله وتعظيم أمره ونهيه فيهما، فإن التفكر والعمل بالكتاب والسُّنة يورِّث التعظيم - وكذلك تذكر آلاء الله ونعمه وعظمة خلقه ودقة صنعه، فمن عرض على قلبه مشاهد القدرة والإبداع، شاهد بهذا القلب عظمة الله التي تُلزم بالتوقير وتستوجب الإيمان والطاعة، ولهذا قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : في معنى ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] «أي: لا تعظمون الله حق عظمته»[١]. فحق التوقير: التعظيم بالقلب، وحق التعظيم بالقلب الطاعة بالجوارح.

يقول ابن القيم - رحمه الله -: «لو أنهم عظموا الله وعرفوا حق عظمته وحدوده؛ أطاعوه وشكروه، فطاعته - سبحانه - واجتناب معاصيه والحياء منه، بحسب وقاره في القلب»[٢].

ولكن تعظيم الله في القلب لا يكتمل حتى توجد المعرفة بكلمة التوحيد علماً، والتصديق بمقتضاها اعتقاداً، والإقرار بها نطقاً والانقياد لها محبة وخضوعاً، والعمل بها ظاهراً وباطناً، وبغير هذا لا يكون القلب سليماً، فصلاح القلب أو فساده يكون بقدر ما يكون فيه من إخلاص موطِّئ للانقياد والاتباع.

---

(١) تفسير الطبري، ٢٩/ ٩٥.

(٢) الفوائد، لابن القيم، ص ١٨٧، ١٨٨.

والإخلاص في القلب كما أنه يوهب، فإنه يُكتسب، وقد جاء التكليف به، كما جاء التكليف بالإيمان وسائر الأركان، قال - سبحانه -: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]. قال ابن كثير في تفسيرها: «أي: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم»[١].

قلبك - أيها الصائم - هو سيد جوارحك وقائدها، فداوم على تفقده لأنه دائم التقلب، وقد كان أكثر دعاء الرسول ﷺ (اللهم مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك)[٢] وكان عليه الصلاة والسلام يجدد فيه مادة الإخلاص التي تصلحه فيقول في دبر كل صلاة حين يسلِّم: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حوة ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) قال رواي الحديث: «وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة»[٣].

وعندما يصلح القلب، فإنه يرسل أوامره إلى سائر الأعضاء: أن استقيموا لربكم فقد استقمت له، وأخصلوا له فقد خلُصت له، وهذا عين الفلاح يوم الحساب﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

[الشعراء: ٨٨ - ٨٩]

وفي شهر رمضان يكون القلب وتكون الأعضاء: أدنى للخشوع وأقرب للخضوع، فتتنزل الرحمات وتضاعف المكرمات، ويزيد إخبات الأفئدة وتصبح

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٣٦٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٨٠١).

(٣) أخرجه مسلم (٩٣٥).

الجوارح من ثَمَ أكثر استعداداً لأن تستجيب لداعي الاستقامة، فليغتنم المقبلون على الله ذلك في شهر الصيام، وبداية ذلك الاغتنام؛ أن يقبل القلب نفسه على الصيام قبل إقبال الجوارح، فللقلب صيام - ينبغي أن يكون دائماً - وهو الإمساك عن نوايا الشر، والامتناع عن الرضا بالباطل.

وقلب الإنسان إذا صام واستقام؛ ألزم الجوارح بلسان الإفهام والإفحام محذراً إياها من المجازفه باقتراف المخالفة في شهر الصيام، يقول ابن الجوزي - رحمه الله -: (ينبغي لمن أصبح صائماً أن يقول للسانه إنك اليوم صائم من الكذب والنميمة وقول الزور والباطل والغيبة، ولعينيه: إنكما صائمتان عن النظر إلى ما لا يحل لكما، وللأذنين: إنكما اليوم صائمتان عن الاستماع إلى ما يكره ربكما، ولليدين: إنكما اليوم صائمتان من البطش فيما حُرِّم عليكما، والغش في البيع والشراء والأخذ والعطاء، وللبطن: إنك اليوم صائمة عن المطعم فانظري على ماذا تفطري، وتجنبي المطعم الخبيث الذي تدُعين إليه، فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب، وللقدمين: إنكما اليوم صائمتان من السعي إلى ما يكتب عليكما وزره، ويبقى قبلكما تباعته وإثمه، ومخاطبة ابن آدم لجوارحه بما تقدم وصفه يجب على العبد استعماله أيام صومه وغيرها ما دام حياً)[١].

(اللهم يا مقلب القلوب ثبِّت قلوبنا على دينك، اللهم يا مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا إلى طاعتك وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .... آمين)

---

(١) بستان الواعظين، لأبي الفرج ابن الجوزي، ص (٣١٣).

(٢٠)

اعتكافك في رمضان

إذا كان الإسلام لا يعرف الرهبانية وانقطاعها عن الدنيا طول العمر في الصوامع والبِيَع، فإنه يشرع بدلاً عن ذلك انقطاعاً مخصوصاً في مكان مخصوص وزمن مخصوص، للعكوف بالنفس على الطاعة والمراقبة والمحاسبة والتفكر، وذلك هو الاعتكاف الذي يعرَّف شرعاً بأنه: «حبس النفس في المسجد خاصة مع نية التقرب»[١].

وروح الاعتكاف هو تخلية القلب لله والإلحاف في طلب عفوه، والإلحاح في نيل رضاه، قال عطاء - رحمه الله - «مثل المعتكف كرجل له حاجة إلى عظيم، فجلس على بابه ويقول لا أبرح حتى تقضي حاجتي، وكذلك المعتكف يجلس في بيت الله ويقول: لا أبرح حتى يغفر لي»[٢].

لقد اقترنت هذه العبادة العظيمة، بما اقترن به الصيام من حِكَم، وهي إصلاح القلب واكتساب التقوى، ولهذا كان اللائق بالاعتكاف أن يكون عُزوفاً عن مخالطة الناس وإقبالاً على الخلوة مع الله، وقد كان رسول الله ﷺ إذا أراد الاعتكاف يأمر بأن يُضرب له خِباء في المسجد يلزمه، يخلو وحده فيه بربه، كما قالت عائشة - رضي الله عنها -: (كان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، فكنت أضرب له خباء فيصلي الصبح ثم يدخله)[٣].

ولأجل هذه الخلوة النافعة بالانحباس عن الناس، جُعلت إحدى وظائف بيوت الله؛ استقبال الراغبين في العكوف إلى الله، قال - تعالى - آمراً إبراهيم

---

(١) انظر شرح النووي لصحيح مسلم (٣/ ٢١١).

(٢) وظائف رمضان (٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٩٢)، ومسلم (٢٠٠٧).

وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ: ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥] . فالاعتكاف سُنَّة المرسلين، من لدن أبي الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وقد سار عليها خاتم النبيين ـ عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم ـ، فكان يختار لهذه العبادة المباركة، أفضل الليالي المباركة وهي ليالي العشر الأخير من رمضان، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: (كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده)[١] .

وقد ذهب الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ إلى أن المعتكف لا يستحب له مخالطة الناس، حتى ولا تعليم علم وإقراء قرآن، بل الأفضل له الانفراد بنفسه، والتخلي بمناجاة ربه وذكره ودعائه[٢] .

ولشيخ الإسلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ، كلام نفيس عن روح الاعتكاف، أنقله هنا بتمامه لأنه يختصر عشرات الصفحات مما يمكن أن يكتب عن تلك الشعيرة التي تحيي الروح فيمن أحيا روحها، قال ـ رحمه الله ـ: «لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سَيْره إلى الله تعالى، متوقفاً على جمعيته على الله، ولم شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى، فإن شعث القلب لا يلُمه إلا الإقبال على الله تعالى، وكان فضول الطعام والشراب، وفضول مخالطة الأنام، وفضول الكلام، وفضول المنام مما يزيده شعثاً ويشتته في كل وادٍ، ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، أو يضعفه أو يعوقه ويوقفه: اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده أن شرع لهم من الصوم ما يذهب فضول الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه، ولا يضره ولا يقطعه عن

---

(١) رواه البخاري (١٨٨٦)، ومسلم (٢٠٠٦).

(٢) وظائف رمضان، ص ٦٠.

مصالحه العاجلة والآجلة، وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب على الله تعالى، وجمعيته عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه، والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهم كله به، والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور، حين لا أنيس له، ولا ما يفرح به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم»[(١)].

إن قطع العلائق عن الخلائق أياماً وليالي معدودات، في بيت من بيوت الله، يفجِّر في النفس روحاً للمصارحة والمطارحة، تجعلها تقبل على المحاسبة قبل أن تحاسب، وتُتبع تلك المحاسبة بالمراقبة، فالكَيْسُ كل الكَيْس في الدينونة لما بعد الموت، والعجز كل في إتْباع النفس لهواها. وقد قال عمر الفاروق - رضي الله عنه -: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا»[(٢)].

وعندما تؤدي سنة الاعتكاف - أخي الصائم - فإنك تحيي سنة مهجورة منذ أزمنة طويلة، قال الإمام الزهري - رحمه الله - «عجباً للمسلمين! تركوا الاعتكاف، مع أن النبي ﷺ ما تركه منذ قدم المدينة، حتى قبضه الله عز وجل».

وليكن المسجد الذي تعتكف فيه مسجد جماعة وجمعة، حتى لا تحتاج للخروج إلى صلاة الجماعة، فإن المعتكف يحظر عليه أن يخرج من اعتكافه إلا لحاجة الإنسان، ولعل مما يناسب معنى الاعتكاف، أن تختار مسجداً لا تعرف فيه أحداً ولا يعرفك أحد، فهذا أدعى لخلوص نيتك، وفراغ أوقاتك، وخلاصك من مخالطات طول العام مع الأهل والأصحاب.

---

(١) زاد المعاد، لابن القيم، (٢/ ٨٦، ٨٧).

(٢) أخرجه الترمذي عنه (٢٣٨٣)، ولا يصح مرفوعاً، كما قال الألباني في السلسلة الضعيفة (١٢٠١).

وإذا كان الاعتكاف مسنوناً في العشر كلها، فإن الأخذ بحظ منه في بعض الأيام، بل في بعض الساعات، أمر مشروع كما ذكر أهل العلم.

إن جُل طاعات رمضان، إن لم تكن كلها، تجتمع للمعتكف، وبخاصة إذا كان اعتكافه في المسجد الحرام، الذي يتمكن فيه من أداء العمرة التي تعدل حجة، ويصلي الصلوات كلها في جماعة، ويجد الوقت الكافي للتلاوة وأداء الأذكار الموظفة، وانتظار الصلوات، وكذلك النفقة والإطعام وطيب الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام، إلىٰ آخر ما تجمعه تلك الطاعة الجامعة لأكثر الطاعات.

والمعتكف يذوق للعيد طعماً آخر، فهو يخرج بعده إلىٰ أهله وزوجه ـ إن كان متزوجاً ـ بعد أن حظر عليه الاعتكاف قربانها، والتي من حقها أيضاً أن تعتكف منفصلة عنه، بشرط توافر الظروف الشرعية لها من الأمن والستر وقرب المحرم وإذن الزوج، وقد كان بعض أزواج النبي ﷺ يعتكفن بالقرب من معتكفه، ولكنه ﷺ اعتكف ذات مرة، واستأذنته عائشة في الاعتكاف فأذن لها، ثم استأذنت حفصة عائشة في الاعتكاف، فأذنت لها، ثم جاءت زينب فاستأذنت أيضاً، حتىٰ اجتمع حول خباء الرسول ﷺ ثلاثة أخبية لنسائه ـ رضي الله عنهن جميعاً ـ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ (آلبِرَّ يُردن؟)(١)، وكأنه ﷺ كره أن تخالط اعتكافهن المخالطة الموجودة في البيوت، أو أن يشغلوه عن اعتكافه، (فترك الاعتكاف ذلك الشهر، ثم اعتكف عشراً من شوال)(٢).

إن تلك القصة، تدل علىٰ أن هدي النبي ﷺ في الاعتكاف، كان أن ينزهه عن المخالطة والمباهاة وخلط الأغراض الأخروية بشوب الأغراض الدنيوية.

(ربنا تقبل منا يا رحيم يا ودود، واجعلنا في الفائزين من الطائفين والعاكفين والركع السجود... آمين)

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٢)، (٢٠٠٧).

(٢) انظر شرح الحديث (١٨٩٢) في فتح الباري.

(٢١)
صبرك في رمضان

الصبر فضيلة العمر، وفريضة الدهر، إلا أن فضله يتضاعف، وفرضه يتأكد في شهر الصيام، لأنه شهر الصبر الذي يصبر المرء نفسه فيه على الإمساك عن المفطرات مادةً ومعنى. وهو الشهر الذي يثبت الطائعون فيه أن صبرهم لله، هو ثباتهم معه على حكمه، فلا تزيغ قلوبهم عن الإنابة، ولا جوارحهم عن الطاعة. والصبر قسمان: محمود ومذموم، جاء الحديث عنهما في القرآن في نحو تسعين موضعاً، فالصبر المحمود أنواع، منه صبر على طاعة الله ـ عز وجل ـ ومنه صبر عن معاصيه، ومنه صبر على أقداره ـ سبحانه وتعالى ـ. والصبر على الطاعات مع الصبر عن المحرمات، أفضل من الصبر على الأقدار المؤلمة[1] التي يظن كثير من الناس أن الصبر منحصر فيها. وصبر النفس على الطاعة وصبرها عن المعصية مع الصبر على ما يؤلم، يجتمع كله في الصوم، ولهذا استحق شهر رمضان أن يوصف بشهر الصبر، كما سماه بذلك النبي ﷺ في قوله: (صم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر)[2].

ففيه صبر على طاعة الله من صيام وقيام وتلاوة وذكر ودعاء، وفيه صبر عن معاصي القلب والجوارح بترك ما قد تشتهيه النفس لأجل الله تعالى، وفيه أيضاً صبر على الابتلاءات المؤلمة، بما يحصل للصائم طبيعةً من تألم من أثر الجوع والعطش.

أما الصبر المذموم فهو الصبر على مساخط الله ومعاصيه، وهذا هو ما يتنافى مع الصيام، حيث يقتل روحه، ويذهب ضياءه.

---

(١) انظر كتاب عدة الصابرين، لابن قيم الجوزية، ص ٢٦.

(٢) أخرجه النسائي (٢٣٦٦)، وصححه الألباني في صحيح النسائي (٢٢٦٨).

إن الصبر الذي نُعِد أنفسنا به ونعودها عليه في رمضان، هو قبس مضيء للنفس، وقوة ماضية في البدن، وأجمل ما في الصوم أنه دُربة للنفس على ألوان الصبر كلها، والنفس البشرية تستجيب لذلك التعويد، وتتدرب عليه بالمران حتى يصير طبيعة، فالصبر بالتصبر وقد قال النبي ﷺ: (من يستعفف يعفه الله، ومن يتصبَّر يصبِّره الله، ومن يستغنِ يغنه الله، ولن تعطوا عطاءً خيراً وأوسع من الصبر)[1].

إن حاجتنا إلى الصبر في هذا العصر، تتضاعف أضعافاً كثيرة، عن حاجة الناس في العصور قبلنا، وذلك بسبب هجمة الفتن التي تتقلب بين فتن الضراء وفتن السراء، وكلاهما يحتاج إلى الصبر بأنواعه الثلاثة، صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على الأقدار والابتلاءات المؤلمة، فالأيام التي نعيشها هي - والله أعلم - أيام الصبر التي قال عنها النبي ﷺ: (إن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم)[2]، فالمؤمن في هذا العصر، محتاج أشد الاحتياج إلى مضاعفة قدراته على الصبر، مستعيناً بالله في ذلك، حتى يستطيع أن يواجه صروف الدهر، وتقلبات زمن الغربة، الذي قال عنه الرسول ﷺ: (يأتي على الناس زمان، الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر)[3]، وهو لن يستطيع أن يقبض على الجمر - يعني حقوق الدين - إلا بالاستعانة بالصبر وبالصلاة، ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

والعصر الذي نعيشه مليء بالعقبات والتحديات التي يواجهنا بها الأعداء ويصابرونا عليها، ولا مناص أمام أهل الإسلام إلا أن يصابروهم في ذلك ﴿يَا

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٨) و مسلم (١٧٤٥) واللفظ له.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٨٤)، وقال: حسن غريب وأخرجه أبو داود (٣٧٧٨)، وابن ماجه (٤٠٠٤) وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣١٧٢).
(٣) أخرجه الترمذي (٢١٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٨٤٤).

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، فالفلاح في مواجهة الخصوم يستوجب استدعاء كل طاقات الصبر والمصابرة، فقد قال الرسول ﷺ: (إن النصر مع الصبر)[1]. فالصبر عدة، تسبق كل إعداد، وتستمر بعد كل إعداد، لأنه إعداد للنفس، وإعداد النفس هو أكبر وأخطر وأجل أنواع الأعداد، وهو يقوم على التقوى والصبر، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

والصبر إعداد للنفس لأنه ينير القلب، ويضيء الفؤاد، ولهذا قال النبي ﷺ (والصبر ضياء)[2] أي أنه ينوِّر القلب بما يحصل فيه من حرارة منيرة، تشبه ضوء الشمس المطهِّر، بخلاف القمر، فإنه نور بلا حرارة، ففيه إشراق بلا إحراق، وقد دل القرآن على ذلك الفرق في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]. فمناسبة وصف الصبر بالضياء في حديث النبي ﷺ، أن فيه حرارة المعاناة ومشقة المجاهدة، بحبس النفس وكفها عما تهواه، وهذا يتوافق مع معنى الصبر في اللغة، فإنه يعني الحبس، ومنه القتل صبراً، وهو أن يحبس الرجل حتى يموت.

والصبر بضيائه، يكسب الصوم نوراً على نور، فتتضاعف فيه الحسنات، وتزداد الأجور، وملمح الصبر واضح في ذلك، فالصابرون تضاعف أجورهم، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، والصوم أيضاً لقيامه على الصبر، يتضاعف فيه الجزاء إلى غير حد. ولهذا قال

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦٦)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٢٦).
(٢) أخرجه مسلم (٣٢٨).

النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربه - عز وجل - : (كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، قال الله - تعالىٰ -، إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي)(١)، فترك شهوات النفس والبدن بالصيام، هو الصبر الذي لأجله جعل الله تعالىٰ جزاء الصيام عليه، قال ابن رجب - رحمه الله - : «يكون استثناء الصوم من الأعمال المضاعفة، فكل الأعمال تضاعف بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لا ينحصر تضعيفه، بل يضاعفه الله أضعافاً كثيرة، فإن الصيام من الصبر، وقد قال الله - تعالىٰ - : ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [**الزمر**: ١٠].

وأنت أخي الصابر في صومك، والصائم في صبرك، تلقىٰ من نفحات الصبر عطاءً عاجلاً، هو بُشراك قبل العطاء الآجل الذي لا يقادر قدره، ولا يدرك سره، فالأمر كما قال النبي ﷺ: (ما أعطىٰ أحد عطاء خيراً ولا أوسع من الصبر)(٢).

أما بشريات الصبر العاجلة التي تهدىٰ إليك مع ركب الصابرين فهي:

- أنك مبشر من الله - عز وجل - بلا واسطة - علىٰ صبرك علىٰ طاعته وصبرك عن معصيته وصبرك علىٰ أقداره المؤلمة، قال - سبحانه - : ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ [**البقرة**: ١٥٥ - ١٥٧].

- وأنك بصبرك هذا حائز رضا الله، وفائز بمعية الله، قال - تعالىٰ - : ﴿ **وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [**الأنفال**: ٤٦].

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٦).

- وأنت بالصبر موعود بالرفعة في الدنيا، والنجاة في الآخرة فأما الدنيا فإن الله - تعالىٰ - يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وأما في الآخرة فإنه - سبحانه - يقول: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١].

(اللهم صبرنا على طاعتك، واصرفنا عن معصيتك، وارزقنا أجر الصابرين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. آمين)

(٢٢)
شكرك في رمضان

أعظم نعم الله - تعالى - على الإنسان، أن يهديه صراطاً مستقيماً، وهو لو قضى عمره كله ساجداً راكعاً، لما وفىً هذه النعمة حقها. ولحمد الله وشكره على نعمة الهداية نصيب في عباداتنا، ففي الصلاة - فريضة أو نافلة - نقرأ سورة (الحمد) وهي الفاتحة، التي تتضمن بعد بدئها بحمد الله - تعالى - والثناء عليه، طلب الاستمرار في الهداية إلى الصراط المستقيم ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] . وبعد ركوعنا لله في تلك الصلاة نقول: (سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه) وفي هذا شكر آخر بعد الاستقامة من الركوع، بل الصلاة جعلت لذكر الله وشكره، كما قال - سبحانه - ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه: ١٤]. وفي عبادة الحج، يهدينا القرآن إلى جعل الأنساك شكراً لله على الهداية، قال - تعالى -: ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج: ٣٧] ، أما في الصيام فقد أُمرنا فيه بالشكر على الهداية أيضاً، فقال - تعالى -: ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] . فالتكبير هنا وفي آية الحج، شكر على الهداية، ولهذا جاءت تعدية فعل التكبير بعلى، لتضمنه معنى الحمد، وكأنه قيل: (ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم). فتكبيرهم هذا شكر على نعمة الهداية العامة، وشكر على النعمة الخاصة بإكمال صيام رمضان.

إن الصبر والشكر قرينان لا ينفصلان في حياة المؤمن، لأن الإيمان شطره صبر، وشطره شكر، وقيامنا بواجب الشكر مهما كان سيكون قليلاً، لأن نعم الله - تعالى - علينا أعظم من أن تعد وأكبر من أن تحصى ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل: ١٨]، ومع قلة شكر الشاكرين مهما شكروا، فإنهم في الناس

قليل ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣] ، ولهذا احتاج الأمر إلى إضاءة من الوحي تبين لنا كيف السبيل لأن نكون من الشاكرين، حتى نكون من الذين قال الله لهم: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]، ولا نكون ممن قيل لهم: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[إبراهيم: ٧].

إن القرآن الذي نتلوه في رمضان مملوء بتقرير الله للإنسان بالنعم حتى يشكرها ولا يكفرها، ونحن إن راقبنا ذلك أثناء تلاوتنا أو استماعنا، وتذكرنا نعم الله التي يذكرنا بها، لقمنا بشيء من واجب الشكر، تأمل مثلاً قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ٨ - ١٠]. لتعلم أن نعماً تغمرنا، ومننا نتقلب فيها، قد لا نحس بها لإلفنا لها، قال مجاهد ـ رحمه الله ـ في تفسير تلك الآية «هذه نعمة من نعم الله الظاهرة، يقررك بها كيما تشكر»[1] وقرأ الفضيل ليلة هذه الآية فبكى، فسئل عن بكائه فقال: «هل بت شاكراً لله أن جعل لك لساناً تنطق به، وعينين تبصر بهما»؟ وجعل يعدد أنواع النعم. وروى ابن أبي الدنيا، أن رجلاً بسط الله عليه الدنيا، ثم انتزعها منه، فجعل يحمد الله ويثني عليه، فقال له رجل آخر لم تنزع منه الدنيا، علام تحمد وتشكر؟ قال: أحمد على ما لو أُعطيتُ به ما أُوتي الخلق، لم أعطهم إياه، قال: وما ذاك؟ قال: أرأيت بصرك. ؟ أرأيت سمعك. ؟ أرأيت لسانك. ؟ أرأيت يديك. . ؟ أرأيت رجليك. . ؟!»[2].

والإنسان قد أُعطي أعظم النعم في جسده صحة وعافية، وأعطي مع ذلك عمراً يستمتع بها فيه، وهو إن لم يشكر الله على تلك العافية وعلى ذلك الوقت بتعميره بطاعة الله، فهو متجن على نفسه وظالم لها، كما قال النبي ﷺ: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ)[3].

---

(١) الدر المنثور، للسيوطي، (٨/ ٥٢١).

(٢) كتاب الشكر، لابن أبي الدنيا، ص ١٠٠، ١٠٢.

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٣٣).

سيعرف الناس مقدار هذا الغبن، عندما يسألون عن شكر تلك النعم يوم القيامة ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، والنعيم الذي سنسأل عنه، ليس خاصاً بأصحاب الدثور والقصور، بل هو نعيم يذوقه كل مخلوق، قال رسول الله ﷺ: (إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نصح لك جسمك، ونرويك من الماء البارد؟)[١].

وما أعظم كرم الكريم - سبحانه - حين يقبل منا القليل من القول والضئيل من العمل، فيعده أداءً منا لواجب الشكر، قال رسول الله ﷺ: (من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر، فقد أدىٰ شكر يومه، ومن قال مثل ذلك حين يمسي فقد أدىٰ شكر ليلته)[٢]. وأي عمل إذا اقترن بالإخلاص والمتابعة، فهو شكر لله - تعالىٰ -، ولهذا قال - سبحانه -: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. الأمر فقط يحتاج إلىٰ نية.

ونحن في شهر الصيام، نستطيع أن نجعل عملنا كله شكراً، فنجعل صيامنا وقيامنا وسائر طاعاتنا بنية الشكر فنجمع بذلك بين الصبر والشكر حتىٰ نكون فيه من الصابرين الشاكرين.

وشكر الله - تعالى - علي درجتين، كما قال أهل العلم.

الأول: شكر واجب، وهو يؤدىٰ بأداء الواجبات واجتناب المحرمات، فكل مقصر في الواجبات، أو مفرط بالوقوع في المحرمات، فشكره ناقص بقدر تقصيره، ولهذا قال بعض السلف: «الشكر ترك المعاصي»، وقال بعضهم: «الشكر ألا يستعان بشيء من النعم علىٰ معصيته». وتركنا للمعاصي في الصيام من شكر رمضان.

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٨١)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٧٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٤١١)، ورواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٧) وقال النووي في الأذكار: إسناده جيد (١١٠)، وحسنه ابن القيم في زاد المعاد (٢/ ٣٣٩).

والثاني: الشكر المستحب، وهو أن يعمل المرء بعد أداء الفرائض واتقاء المحارم بأداء النوافل من الطاعات، وهذه درجة السابقين المقربين. وهذا الشكر هو الذي كان النبي ﷺ يقوم به قياماً في الصلاة بين يدي الله، حتى تتفطر قدماه، فإذا سئل عن ذلك قال: (أفلا أكون عبداً شكوراً)[1]. ونحن عندما نستحضر هذه النية في قيامنا لله في رمضان، نكون قد جمعنا بين الذكر والشكر.

إن من جميل فضل الله علينا، أنه جعل شكرنا للنعم، نعماً أخرى علينا، يشكرها لنا، ويزيدنا بها ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فإذا وفق الله عبده للشكر على نعمه الدنيوية بالحمد أو غيره من أنواع الشكر، كانت هذه النعمة خيراً من النعم، وأحب إلى الله - عز وجل - منها، فإن الله يحب المحامد، ويرضى عن عبده أن يأكل الأكل فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها، والثناء بالنعم والحمد عليها وشكرها عند أهل الجود والكرم أحب إليهم من أموالهم، فهم يبذلونها طلباً للثناء، والله - عز وجل - أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، فهو يبذل نعمه لعباده، ويطلب منهم الثناء بها وذكرها والحمد عليها، ويرضى منهم بذلك شكراً عليها، وإن كان ذلك كله من فضله عليهم، وهو غير محتاج إلى شكرهم، لكنه يحب ذلك من عباده، حيث كان صلاح العبد وفلاحه وكماله فيه، ومن فضله أنه نسب الحمد والشكر إليهم، وإن كان من أعظم نعمه عليهم، وهو غير محتاج إلى شكرهم، وهذا كما أنه أعطاهم ما أعطاهم من الأموال، ثم استقرض منهم بعضه ومدحهم بإعطائه والكل ملكه ومن فضله، ولكن كرمه اقتضى ذلك.

(فاللهم أكرمنا بكرمك واجعلنا من الشاكرين لنعمك، وأنزلنا منازل الشاكرين المكرمين عندك ... آمين)

---

(١) رواه البخاري (١٠٦٢)، (٤٤٥٩)، ومسلم (٥٠٤٤)، (٥٠٤٥).

(٢٣)

جودك في رمضان

الجود هو سعة العطاء وكثرته، وهو من صفات الله العُلا، التي اشتُق منها اسم من أسمائه الحسنى، وهو: (الجواد)، وقد وصف الرسول ﷺ ربه - عز وجل - بذلك فقال: (إن الله جواد يحب الجود ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها)[١].

إن جود الله وكرمه يزداد على العباد في رمضان، وهو يحب من عباده أيضاً أن يجودوا ويتكرموا في ذلك الشهر الكريم، وقد كان الرسول ﷺ يسارع إلى الجود في ذلك الشهر كما جاء في الحديث المتفق عليه عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبرائيل فيدارسه القرآن وكان جبرائيل يلقاه كل ليلة من شهر رمضان، فَلَرسول الله ﷺ حين يلقاه جبرائيل أجود بالخير من الريح المرسلة)[٢].

ويفسر ابن رجب - رحمه الله - السر في مضاعفة جود النبي ﷺ في شهر الصيام فيقول: «كان هذا الكتاب الكريم له ﷺ خُلقاً، بحيث يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه، ويسارع إلى ما حث عليه، ويمتنع عما زجر عنه، فلهذا كان يتضاعف جوده وإفضاله في هذا الشهر لقرب عهده بمخالطة جبرائيل، وكثرة مدارسته له هذا الكتاب الكريم الذي يحث على المكارم والجود، ولا شك أن المخالطة تؤثر وتورث أخلاقاً من المخالِط»[٣].

---

(١) أورده الألباني في صحيح الجامع (٨٠٠) وقال صحيح الاسناد.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) وظائف رمضان، ص ٣٣.

والجود والعطاء، تترجم عنه الصدقات التي تطيب بها نفس المؤمن، فيعبِّر عن نبل إحسانه وصدق إيمانه بتلك الصدقات، ولذلك قال النبي ﷺ: (والصدقة برهان)(١) فهي تبرهن على إيمان صاحبها وأدائه لحق الله في المال، بخلاف المنافق البخيل، الذي لا يرى في ماله حقاً لأحد.

ولارتباط الجود باسم رمضان، سُميت زكاة الفطر: (صدقه رمضان)، ففي الصحيحين: (فرض رسول الله ﷺ صدقة رمضان على الحر والعبد، والذكر والأنثى، صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير، فعدل الناس به نصف صاع من بُر)(٢).

وإذا كانت الصدقة برهاناً على الجود، فقد كان لرسولنا ﷺ أعظم البراهين في ذلك، لأن جوده عليه الصلاة والسلام كان أعظم الجود، وقد كانت له ﷺ تطوعات بالصدقات، يحدثنا عنها الإمام ابن القيم فيقول: «كان إذا عرض له محتاج آثره على نفسه، تارة بطعامه، وتارة بلباسه، وكان ينوع في أصناف عطائه وصدقته، فتارة بالهبة، وتارة بالصدقة وتارة بالهدية، وتارة بشراء الشيء ثم يعطي البائع الثمن والسلعة جميعاً، كما فعل ببعير جابر، وتارة كان يقترض الشيء فيرد أكثر منه وأفضل وأكبر، ويشتري الشيء فيعطي أكثر من ثمنه، ويقبل الهدية ويكافئ عليها بأكثر منها أو بأضعافها، تلطفاً وتنوعاً في ضروب الصدقة والإحسان بكل ممكن، وكانت صدقته وإحسانه بما يملكه وبحاله وقوله، فيُخرج ما عنده، ويأمر بالصدقة ويحض عليها ويدعو إليها بحاله وقوله، فإذا رآه البخيل الشحيح دعاه حاله إلى البذل والعطاء، وكان من خالطه وصحبه ورأى هديه لا يملك نفسه من السماحة والندى»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٣٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٥١١) ومسلم (٩٨٤) واللفظ له.

(٣) زاد المعاد (٢/ ٢٣٢).

والجود بالمال على تنوعه، ليس الصورة الوحيدة للجود، فهناك جود بغير المال، وهو يعد من الصدقات المتطوع بها، والتي للمرء أن يجود على نفسه بها في رمضان، طلباً لمرضاه الله. يقول ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «والصدقة بغير المال نوعان:

أحدهما: ما فيه تعدية الإحسان إلى الخلق، فيكون صدقة عليهم، وربما كان أفضل من الصدقة بالمال، وهذا كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه دعوة إلى طاعة الله، وكف عن معاصيه، وذلك خير من النفع بالمال، وكذلك تعليم العلم النافع وإقراء القرآن والدعاء للمسلمين والاستغفار لهم وإزالة الأذى عنهم، كما في حديث: (تبسمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة)[١].

والنوع الثاني من الصدقة غير المالية: ما نفعه قاصر على فاعله، كأنواع الذكر، من التكبير والتسبيح والتحميد والتهليل والاستغفار، وكذلك المشي إلى المساجد صدقه»[٢].

وجودك في رمضان ـ أخي الصائم ـ ستجد جزاءه جوداً من ربك الجواد الكريم، فالجزاء من جنس العمل، فأنت بجودك على الصائمين وأصحاب الحاجة، تحوز معهم مثل أجورهم، فقد قال ﷺ: (من فطَّر صائماً فله مثل أجره، من غير أن ينقص من أجر الصائم شيء)[٣]. وأنت إن جمعت في شهر الصيام

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٥٧) وقال حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٥٩٤).

(٢) جامع العلوم والحكم، ص ٥٩ وما بعدها ـ باختصار ـ.

(٣) رواه الترمذي (٧٣٥) وقال: حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه (١٧٣٦) وابن حبان في صحيحه (٣٤٢٩)، وأحمد (١٦٤١٩)، (١٧٠٧٤) وقال الأرناؤوط: في تعليقه عليه: حسن بشواهده.

بين القيام وإطعام الطعام، تجازى بذلك الجود جزاءً خاصاً، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (إن في الجنة غُرفاً، يرىٰ ظاهرها من باطنها، وبطونهامن ظهورها، قالوا لمن يارسول الله؟ قال: هي لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلىٰ لله بالليل والناس نيام)[1]، وبجودك أيضاً تنال ـ أيها الصائم ـ دعوة من ملائكة السماء كل يوم تجود فيه، فقد قال ﷺ: (مامن يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر، اللهم أعط ممسكاً تلفاً)[2].

(اللهم جد علينا بجودك، واشملنا بعفوك، واجعلنا من المقبولين عندك... آمين)

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٦٨) والترمذي (٢٤٥٠) والحاكم وصححه (١/ ٨٠ـ ٨١) ووافقه الذهبي وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٥١).
(٢) رواه البخاري (١٣٥١)، ومسلم (١٦٧٨).

(٢٤)
مجاهدتك في رمضان

كما أن رمضان شهر الصبر على الصيام والقيام وتلاوة كتاب الله والإحسان إلى خلق الله؛ فإنه شهر الجهاد والمجاهدة للنفس وللناس في ذات الله، وليست مصادفة أن تكون انتصارات المسلمين الكبرى في رمضان، فالصائم في ذلك الشهر يصل إلى رتبة من الرقي الروحي، تبلغ به أن يضحي بهذه الروح في سبيل مرضاة ربه، وهذا سر من أسرار الصيام، وروح من روحه.

* لقد كانت أولى انتصارات المسلمين وأعظمها - وهي غزوة بدر الكبرى - في السابع عشر من شهر رمضان في العام الثاني من الهجرة النبوية الشريفة، وهي الغزوة التي خلَّد القرآن ذكرها في قول الله تعالى ﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [**آل عمران**: ١٢٣].

* وفي العشرين من شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة، كان فتح مكة المكرمة الذي أعز الله به الإسلام وأهله، ودخل الناس فيه في دين الله أفواجاً، وفي شأن هذا النصر، نزلت سورة النصر: ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ [**النصر**: ١ - ٣].

* وفي الثامن عشر من شهر رمضان لعام اثنين وتسعين للهجرة، فتح المسلمون الأندلس، وقامت بها خلافة زاهرة.

* وفي السادس والعشرين من شهر رمضان من عام ثلاث وثلاثين ومائتين للهجرة فتح المسلمون مدينة عمورية، بقيادة الخليفة العباسي، المعتصم بالله.

* وفي الرابع من رمضان من عام ست وستين وستمائة، انتصر المسلمون على الصليبيين انتصاراً كبيراً، واسترد القائد الإسلامي الظاهر بيبرس مدينة إنطاكية.

* وفي الخامس عشر من شهر رمضان لعام ثمان وستين وستمائة، انتصر المسلمون على جحافل التتار في معركة عين جالوت، بقيادة القائد المملوكي سيف الدين قطز، ولم تقم للتتار بعدها قائمة، بعد أن كانوا قد غزوا العالم الإسلامي، وأسقطوا دارالخلافة العباسية في بغداد.

إن روح الجهاد تسمو في رمضان، بسمو روح المجاهدة فيه، ولا شك أن جهاد النفس هو مقدمة كل جهاد صحيح، فالأمر كما قال النبي ﷺ: (المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب)(١)، ولن يقوى على الاستمرار في مسار الجهاد الشرعي لأعداء الله المغتصبين لحقوق المسلمين، إلا أقوام جاهدوا أنفسهم في الله، ثم جاهدوا بها في سبيل الله. والصيام سبيل أصيل من سبل التعبد بجهاد النفس.

قد لا يرى البعض علاقة وطيدة بين مجاهدة النفس وبين الاجتهاد في العبادة، ولكن الحديث المذكور يوضح تلك العلاقة: (المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله)، فالاجتهاد في الطاعات كلها، ـ ومنها الصيام ـ، يبني شخصية خاصة، جادة في ملامحها، صادقة في توجهها، وهذا ما نرجو أن يثمره رمضان فينا، وبخاصة في أيامه الأواخر، التي تعد حقاً أيام المجاهدة والاجتهاد، فلتجتهد فيها ـ أخي الصائم القائم ـ مستحضراً نية الاستعداد والإعداد، فلعلك تضيف إلى طاعتك في رمضان بتلك النية، طاعة تحديث النفس بالجهاد فإن (من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق)(٢).

ومجاهدة النفس بالصيام تعني إقامة هذا الصيام كما تقام الصلاة، بمعنى أن يبذل المرء وسعه في الإتيان بأركانه وواجباته وشروطه ومكملاته، ولا يكون

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٨٣٣)، (٢٢٨٤٠) وصححه الألباني في السلسله الصحيحه (٥٤٩).
(٢) أخرجه مسلم (٣٥٣٣).

ذلك إلا بنوع خاص من المجاهدة والمصابرة، قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «اعلم أن المؤمن يجتمع له في شهر رمضان جهادان، جهاد لنفسه بالنهار على الصيام، وجهاد بالليل على القيام، فمن جمع بين هذين الجهادين، ووفى بحقوقهما وصبر عليهما، وُفِّي أجره بغير حساب»(١).

ويبرز معنى المجاهدة مع استشعار اقتراب الشهر من نهايته، فإذا استشعر المرء ذلك بانتهاء ثلثي الشهر، فينبغي أن يبادر إلى محاولة اغتنام الثلث الآخر، وهو الثلث الأفضل ممثلاً في العشر الأواخر من رمضان. وقد كان من هدي النبي ﷺ أن يخص تلك العشر باجتهاد مضاعف، ليرشد المؤمنين إلى تدارك مافات، وإدراك ما بقي، ففي الصحيحين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله، وأيقظ أهله)(٢).

وفي رواية لمسلم عنها أنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر من رمضان ما لا يجتهد في غيره)(٣).

وهذا الاجتهاد الذي كان النبي ﷺ يخص به العشر الأواخر من شهر رمضان، كان يشمل أموراً، منها: إحياء الليل، وإيقاظ الأهل، واعتزال النساء، وتأخير الفطور إلى السحور، والاغتسال بين العشاءين (يعني المغرب والعشاء) وكذلك كان يخص تلك العشر بعبادة الاعتكاف، فهذه ست خصال، كانت محل اجتهاد النبي ﷺ في العشر الأواخر كما قال ابن رجب (رحمه الله).

فالأمر الأول من هذه الخصال الست، هو إحياء الليل؛ دل عليه قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: (وأحيا ليله)، ويحتمل أن يراد بإحياء الليل، إحياء غالبه.

---

(١) وظائف رمضان، ص ٤٦.

(٢) رواه البخاري (١٨٨٤).

(٣) رواه مسلم (٢٠٠٩).

والأمر الثاني: من خصال الاجتهاد في العشر الأواخر: إيقاظ الأهل للصلاة فالمروي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ (كان يوقظ أهله في العشر الأواخر)[١] وفي حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أنه قام بهم في ليلة ثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين، وذكر أنه ﷺ دعا أهله ونساءه.

وهذا يدل على أنه يتأكد إيقاظ الأهل في آكد الأوتار التي ترجى فيها ليلة القدر، وقد كان ﷺ يوقظ أهله في العشر الأواخر، وقال سفيان الثوري: «أحب إليَّ إذا دخل العشر الأواخر أن يجتهد بالليل، ويُنهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك»[٢].

ولئن كان هذا من الاجتهاد الزائد في العشر الأواخر من رمضان لكل الأمة، فقد كان هدياً ثابتاً للنبي ﷺ مع أهل بيته طيلة شهور العام، فقد صح أنه ﷺ كان يطرق فاطمة وعلياً ليلاً ـ رضي الله عنهما ـ فيقول: (ألا تقومان فتصليان؟)[٣].

والأمر الثالث: من خصال الاجتهاد في العشر الأواخر: أنه ﷺ كان يشد المئزر، والمراد: يعتزل النساء، ففي الحديث عن عائشة (كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شد المئزر وأحيا ليله وأيقظ أهله)[٤].

والأمر الرابع: تأخير الفطور إلى السحور، فقد روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وأنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ كان في ليالي العشر، يجعل عشاءه سحوراً[٥]، وعن أبي سعيد مرفوعاً قال: (لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السَحَر) قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله قال: (إني لست

---

(١) صححه الألباني في كتاب (صلاة التراويح) (١٦).
(٢) وظائف رمضان ص ٥٦.
(٣) رواه الترمذي (٧٢٥)، وأحمد (٧٢٣)، (١٠٠٦).
(٤) أخرجه البخاري (١٠٥٩) ومسلم (١٢٩٤).
(٥) أخرجه البخاري (١٨٨٤) ومسلم (٢٠٠٨).

كهيئتكم، إني أبيت لي مطعم يطعمني وساقٍ يسقيني)[١].

والخصلة الخامسة: الاغتسال بين صلاتي المغرب والعشاء، فقد روىٰ ابن أبي عاصم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: (كان رسول الله ﷺ إذ كان في رمضان نام وقام، فإذا دخل العشر، شد المئزر، واجتنب النساء، واغتسل بين الأذانين)[٢]، يعني المغرب والعشاء، ولا شك أن الاستعداد لتلك الليالي الشريفة بمزيد من الطهارة فيه مزيد من التزكية.

وأما الخصلة السادسة: فهي الاعتكاف، وهي ما تحدثنا عنه سابقاً.

(اللهم ارزقنا العزيمة على الرشد، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، وارزقنا الفوز بالجنة والنجاة من النار... آمين)

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٢٧)، (١٨٢٨) ومسلم (١٨٤٤)، (١٨٤٥).

(٢) ذكره ابن رجب في لطائف المعارف، ص ٣٤٦.

(٢٥)
دعاؤك في رمضان

من كرامة الشهر الكريم، أن تكرَّم الله علينا فيه بإجابة الدعاء، ولكرامة الدعاء نفسه فقد قرنه الله بذلك الشهر، فقال في أثناء الحديث عن الصيام وحِكَمه وأحكامه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] فاستجابة الدعاء تكريم فوق تكريم في الشهر الكريم و (ليس شيء أكرم على الله من الدعاء)[١]، كما قال الرسول ﷺ.

فأنت في شهر الكرم تتعبد بأكرم عبادة لرب موصوف بالكرم، قال رسول الله ﷺ: (إن ربكم تبارك وتعالى حييٌّ كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً)[٢]. والله - تعالى - يحب من دعاه، ولهذا أمر بالدعاء، وهو لا يأمر إلا بما يحب ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] بل إنه - سبحانه - يسخط على من ترك الدعاء استهانة به أو استكباراً عنه، فقال - عز وجل - بعد قوله السابق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، وقال الرسول ﷺ: (من لم يسأل الله يغضب عليه)[٣].

والترغيب في نوال الإجابة بالدعاء في قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. جاء في سياق الترغيب في حصول التقوى بالصيام. فللدعاء مذاق في سياق الصيام؛ يعرفه المتضرعون إلى الله قبيل الإفطار، والمنكسرون بين يديه وقت الأسحار، والباكون المتباكون أمام

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، (٨٥٣٠)، والترمذي في كتاب الدعوات (٣٨٢٩)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٨٤).

(٢) رواه أبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥) وصححه الألباني في صحيح أبو داود (٧٨٢).

(٣) رواه الترمذي (٣٣٧٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤١٨).

ربهم بعد طول القيام وفي أدبار الأوتار، فهم يستشعرون القرب من ربهم والإجابة من مولاهم القريب.

وكلما مرت أيام رمضان استكثر المحبون من الدعاء فاستكثروا من الخير، فيكون شهر رمضان شهراً للدعاء، كما أنه شهر للقرآن وشهر للصبر وشهر للصيام والإطعام والإكرام. قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وفي ذكره تعالىٰ هذه الآية الباعثة علىٰ الدعاء، متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلىٰ الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر»[١]. ولكن! لماذا ينبغي للمجتهدين أن يجتهدوا في الدعاء أثناء الصيام وبعده؟ إنهم يجتهدون لأجل جائزة خاصة بالداعين من الصائمين، وهي أن الله يخصهم بألا يردَّ دعاءهم، جزاء لهم علىٰ الاحتساب في صيامهم. فقد قال النبي ﷺ: (إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد)[٢]، وكان راوي هذا الحديث وهو عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا[٣].

وهذه الجائزة للصائم، ليست خاصة بصيام رمضان، فلكل صائم دعوة لا ترد، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (ثلاثة لاترد دعوتهم، الإمام العادل، والصائم حتىٰ يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، ويفتح لها أبواب السماء ويقول: بعزتي لأنصرك ولو بعد حين)[٤].

ولهذا كان الصالحون يكثرون من التقرب إلىٰ القريب المجيب بالدعاء،

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٣٣).

(٢) رواه ابن ماجه (١٧٥٣) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٩٦٥) وله شاهد عند أحمد (٧٤٠١) بلفظ: (إن لله عتقاء في كل يوم وليلة لكل عبد منهم دعوة مستجابة) قال الألباني فيه: صحيح لغيره، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٠٠٢).

(٣) أخرجه الطيالسي، برقم (٢٩٩).

(٤) أخرجه أحمد (٧٩٨٣)، والترمذي (٣٥٩٨) وابن ماجه (١٧٥٢)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٤٢٠).

بحيث يتخلل هذا الدعاء صيامهم في النهار وقيامهم في الليل، وسعيهم بين ذلك مجيبين دعوة الله للداعين ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ومستجيبين في الوقت نفسه لندائه للصائمين في قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

والله - تعالىٰ - يدعونا لإخلاص العبادة له بإخلاص الدعاء، فيقول: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]. و (الدعاء هو العبادة)(١) كما قال الرسول ﷺ، وهذه العبادة تتألق في الصيام، فعنده يرق القلب وترف الروح، فتجف الشهوات وتنكسر النفس، ويكون ذلك تأهيلاً للعبد لأن يكون مستجيباً لله فيستجيب الله له، فإجابة الدعاء تقترن دائماً بانكسار القلب وضعف النفس وتحررها من ضغوطات الشهوات، وهذا لا يتوافر في حال من أحوال الإنسان بقدر توافره في وقت الصيام.

ودعاء الله يقترن دائماً بالاستعانة به، فإننا عندما ندعو الله، فإنا نستعين به، وعندما نستعين به فإننا ندعوه ولسان حالنا يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله)(٢)، فإظهار الافتقار إلىٰ الله - عز وجل -، لا يكون بمثل الاستعانة والدعاء والمسألة، وقد أمرنا الله بالمسألة فقال - تعالىٰ -: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]، وفضله - سبحانه - يُلتمس ويُطلب في الكثير والقليل كما قال - عليه الصلاة والسلام -: (ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتىٰ يسأله الملح، حتىٰ يسأله شسع نعله إذا انقطع)(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٨٨٨)، والترمذي (٢٩٦٩)، وأبو داود (١٤٧٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢/ ١٢٥٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٥٨)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٥٧).

(٣) رواه الترمذي (٣٩٧٤)، وأبو داود (٦٦٤٢)، والنسائي (١/ ٢٢٩) وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٢٥١).

وأنت ـ أخي الصائم ـ إذا دعوت الله في أي ساعة، فإنك فائز في كل حال، وحائز على جوائز مضمونة بمجرد أن يكون دعاؤك خالصاً، يقول الرسول ﷺ: (ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله ـ عز وجل ـ إحدى ثلاث: إما أن يعجِّل له دعوته، وإما أن يؤخرها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها)[١].

ومع ذلك فإن للدعاء أوقاتاً أقرب للقبول يغتنمها الخلصاء، ويتحراها الحصفاء في رمضان وفي غير رمضان وهي:

* **جوف الليل**: لقوله ﷺ: (إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة)[٢].

* **وقت السحر**: لقوله ﷺ: (ينزل الله عز وجل كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: من الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، من ذا الذي يسترزقني فأرزقه، من ذا الذي يستكشف الضر أكشفه عنه، حتى ينفجر الفجر)[٣].

* **ليالي رمضان**: لقوله ﷺ: (إذا كان أول ليلة من شهر رمضان، صفِّدت الشياطين ومردة الجن وغلِّقت أبواب النيران فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وينادي منادٍ يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة)[٤].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧٤٩) والبخاري في الأدب المفرد (٧١٠) والحاكم في مستدركه (١/ ٤٩٣)، وقال صحيح الإسناد، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، حسن صحيح (١٦٣٣).

(٢) رواه مسلم (٧٥٧).

(٣) أصله في البخاري (١١٥٤)، ومسلم (٧٥٨).

(٤) أخرجه الترمذي (٦٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٥٤٩).

* **عند النداء للصلاة**: لقوله ﷺ: (إذا نودي للصلاة، فتحت أبواب السماء، واستجيب الدعاء، وإن الدعاء لا يرد فيما بين الأذان والإقامة)(١).

* **بين الأذان والإقامة**: لقوله ﷺ: (الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة فادعوا)(٢).

* **عند السجود في الصلاة**: لقوله - تعالىٰ -: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: ٦٢]. وقول النبي ﷺ: (أقرب ما يكون العبد إلىٰ ربه وهو ساجد)(٣).

* **بعد الانتهاء من الصلاة**: لقول الله - تعالىٰ -: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧ - ٨]، قال الضحاك: «إذا فرغت من الصلاة فانصب بعد التسليم في الدعاء وارغب في المسألة»(٤).

* **في يوم الجمعة**: لقوله ﷺ: (في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلي يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه)(٥).

* **الانتباه في الليل بعد النوم على طهاره**: لقوله ﷺ: (ما من مسلم يبيت علىٰ ذكر الله - تعالىٰ - طاهراً، فتعارَّ - أي استيقظ - من الليل فيسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا إعطاه إياه)(٦).

* **بين صلاتي الظهر والعصر من يوم الأربعاء**: لقول جابر بن عبد الله: دعا

---

(١) أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة (١/ ٢٢٧)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (٢٠١٦)، والخطيب البغدادي في تاريخه، (٤/ ١٤٧)، والبغوي في شرح السنن، (٢ / ٢٩١)، وله شواهد يعتضد بها، انظر: كتاب الترغيب في الدعاء، ص ٤٣، تحقيق أبي يوسف محمد حسن.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، (١٢٩٤٤)، وابن خزيمة في صحيحه (٤٢٦)، والبغوي في شرح السنة، (٥ / ١٦٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٤٤).

(٤) الأثر أخرجه عن عبد بن حميد وابن نصر بن الضحاك بإسناد حسن.

(٥) أخرجه البخاري(٤٨٨٤)، ومسلم (١٤٠٧) ، (١٤٠٨).

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٦٠٩)، وأبو داود (٥٠٤٢)، وابن ماجه (٣٣٨١)، والنسائي في عمل اليوم (٨٠٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٨٨).

رسول الله ﷺ في مسجد الأحزاب يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء، فاستجيب له يوم الأربعاء، بين صلاتي الظهر والعصر فعرفنا السرور في وجهه . قال جابر: «فما نزل بي أمر مهم غائظ إلا توخيت تلك الساعة من ذلك اليوم فدعوت فعرفت الإجابة»[١].

* **عند نداء داعي الجهاد وحضور المعركة:** لقوله ﷺ: (ساعتان تفتح فيها أبواب السماء، وقل ما ترد على داعٍ دعوة، عند حضور النداء والصف في سبيل الله عز وجل)[٢].

واحرص - أخي الصائم - إذا دعوت ربك، أن تدعوه باسمه الأعظم، فقد دعا بذلك رجل، فسمعه النبي ﷺ وهو يقول: (اللهم إني أسألك بأنك أنت الله، لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحدا، فقال ﷺ: لقد سألت باسم الله الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى وإذا دُعي به أجاب)[٣].

(فاللهم إنا نسألك باسمك الأعظم الذي إذا سئلت به أعطيت وإذا دعيت به أجبت أن تعطينا سؤلنا كله، وتغفر لنا ذنبنا كله، وتمن علينا بالرضى كله... آمين)

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٥)، والنسائي في السنن الكبرى (٢/ ٩٠)، وأبو داود، (١٤٩٣) (١٤٩٤)، وابن ماجة (٣٨٥٧)، ورواه الإمام أحمد في مسنده، وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه الطبراني عن سهل بن سعد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٨٧).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٥٣٢)، والترمذي (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣١١١).

(٢٦)

فرصة عمرك في رمضان

هل لك في مناسبة، تستدرك فيها ما فات من عمرك. . . ؟!.

هل لك في ساعات تضاعف الأعمال فيها بالآلاف والمئات. . . ؟!

هل لك في أمسية تصافحك فيها الملائكة، وسيد الملائكة جبريل - عليه السلام -، فيسلِّمون عليك ويدعون لك، ويؤمنُّون على دعائك. . . ؟!

هل لك في لحظات إن وافقتها أخرجتك من ذنوبك التي قدمتها. . . ؟!

هل لك في ليلة لا تدرك قدرها العقول ولا تفي بوصفها الألسنة. . . ؟!

إنها ليلة القدر ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ٢]، ليلة القدر هذه، هي التي حباك الله فيها - أيها المؤمن - رحمته وبركته وإكرامه، فإن فزت فيها فأنت الفائز، وإن حرمت منها فأنت المحروم ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٣ - ٥].

إنها الليلة المباركة التي تنزل فيها الكتاب المبارك ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٣ - ٤].

* فهي ليلة مباركة لأن القرآن أنزل فيها جملة واحدة، من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء، ثم نزل بعد ذلك مفصلاً[1].

* وهي ليلة مباركة، لأن الله العظيم عظَّمها، وجعل وصفها أجلَّ من الوصف فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ٢]: أي قدرها خارج عن دائرة

(١) نقل هذا عن ابن عباس وغيره، انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣٢).

دراية الخلق، ولايعلم قدرها إلا علام الغيوب.

* وهي ليلة مباركة لأن الله - تعالىٰ - خص هذه الأمة فيها بكرامة وهبة إلهية؛ فجعل العبادة في ليلتها خيراً من عبادة ألف شهر مما كانت الأمم السابقة تتعبد فيها، وهي مدة تقدر بعمر رجل عمَّر ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر في طاعة متواصلة، فليلة القدر ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]، ليس في شهر منها ليلة قدر. بل قال بعض أهل العلم إنها خير من الدهر، لأن العرب تذكر الألف كغاية في العدد.

* وهي ليلة مباركة لأن الملائكة تعمر الأرض فيها وتغمرها، فيتوافد سكان السماء علىٰ سكان الأرض من المؤمنين، حتىٰ إن أفضل تلك الملائكة وأشرفها وفي مقدمتهم جبريل - عليه السلام - يهبطون من كل سماء، ومن سدرة المنتهىٰ، فينزلون الأرض، ويؤمِّنون علىٰ دعاء الناس ويسلِّمون علىٰ أنفسهم وعلىٰ المؤمنين في المساجد حتىٰ يطلع الفجر(١)، ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٤ - ٥].

* وهي ليلة مباركة لأنها ليلة الحُكْم، الجامعة بين حكم الله القدري وحكمه الشرعي، فقد تنزل القرآن فيها بالأحكام الشرعية التي تعلِّم الناس ما يقربهم إلىٰ الله، ولذلك قال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣] و فيها أيضاً تتنزل الأحكام القدرية، حيث يفصل فيها كل أمر حكيم من اللوح المحفوظ إلىٰ الكتَبَة، بما يكون من أمر السنة في الآجال والأرزاق والأعمال، ولهذا قال - سبحانه - : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٤ - ٥].

* ومن بركتها أن ما ينزله الله - تعالىٰ - فيها من أقدار لأهل الإيمان يجري علىٰ مقتضىٰ الرحمة، فلا يقدِّر فيها إلا السعادة والنعم، ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان: ٦]، بخلاف سائر الليالي، فإنها تقدَّر فيها البلايا والنقم، ولا يستطيع

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ١١٣).

الشيطان أن يؤثر فيها على مؤمن ولا مؤمنة ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٥][(١)].

* ومن بركتها أنها أخفيت، حتى يجتهد الناس في بقية ليالي العشر، التماساً لها، فيغنموا فضيلة هذا الاجتهاد، ويضاف ذلك إلى موازين أعمالهم[(٢)].

* ومن بركتها أن من قامها وأحياها إيماناً واحتساباً بالقيام والذكر والدعاء، غفر له ما تقدم من ذنبه، لقول النبي ﷺ (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)[(٣)].

* ومن بركتها أنها تعوض قصر أعمار هذه الأمة، حيث تقاصرت أعمارها عن أعمار الأمم السابقة، قال الإمام مالك - رضي الله عنه - : «بلغني أن النبي ﷺ أُري أعمار الناس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته ألاّ يبلغوا من العمل الذي بلغه غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر»[(٤)].

* ومن بركتها أن من أعطيها ووُفق إليها، خرج من زمرة المحرومين، لقوله ﷺ عن رمضان: (وفيه ليلة، خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم)[(٥)]. وفي رواية: (من حرم خيرها فقد حرم الخير كله ولا يحرم خيرها إلا محروم)[(٦)].

* ومن بركتها أن نهارها أفضل من كل نهار في رمضان، فقد قال الشعبي -

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣٤).
(٢) وظائف رمضان، ص ٦٣.
(٣) أخرجه البخاري (٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠).
(٤) وظائف رمضان، ص ٦٤.
(٥) أخرجه النسائي، ٢٠٧٩، وأحمد ٦٨٥١.
(٦) أخرجه ابن ماجه (١٦٣٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣٣٣).

رحمه الله ـ: «ليلها كنهارها» وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ : «أستحِب أن يكون اجتهاده في نهارها كاجتهاده في ليلها»[١].

* ومن بركتها أن لها علامة كونية، تدل على أن عوالم الفضاء والسماء تعرف تلك الليلة وتُعرِّف بها، فقد أخبر أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ: (أن الشمس تطلع في صبيحتها لا شعاع لها)[٢].

* ومن بركتها أن لها دعاءً مخصوصاً مستجاباً، فقد سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله إذا شهدت ليلة القدر ماذا أقول فيها؟ قال: قولي: (اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعف عني)[٣].

يا رب عبدك قد أتاك وقد أساء وقد هفا

يكفيه منك حياؤه من سوء ما قد أسلفا

حمل الذنوب على الذنوب الموبقات وأسرفا

وقد استجار بذيل عفوك من عقابك ملحفاً

رب فاعف عنه وعافه، فلأنت أولى من عفا

(فاللهم يا غياث المستغيثين، ويا مجيب المضطرين، وفقنا لشهود ليلة القدر، وعظمٍ لنا فيها الأجر، وضع عنا كل وزر، اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا ... آمين)

---

(١) وظائف رمضان، ص ٦٩.

(٢) أخرجه مسلم (١٢٧٢)، (١٩٩٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥١٣)، وصححه، وابن ماجه (٣٨٥٠) وأحمد، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣١٠٥).

(٢٧)
عمرتك في رمضان

من كرامة شهر رمضان، أن جعله الله موسماً لأكثر العبادات، من صيام وصلاة وقيام، وزكاة ونفقة وإحسان، وصبر وشكر وذكر وتلاوة قرآن، وحتى المناسك؛ جعل الله لها نصيباً في ذلك الشهر العظيم، فقصد البيت الحرام في رمضان بالحج الأصغر ـ وهو العمرة ـ مشروعٌ مندوب إليه، وعمل صالح يُتسابق عليه، فقد صح عن رسول الله ﷺ أن إحدى نساء الأنصار شكت إليه فوات الحج، فقال لها رسول الله ﷺ: (إذا كان رمضان اعتمري فيه، فإن عمرة في رمضان تعدل حجة) وفي لفظ: (تعدل حجة معي)[١].

وهذه العمرة، تعدل الحج في الثواب، لكنها لا تقوم مقام الفريضة، لأن العمرة لا تجزئ عن حجة الفريضة كما أجمعت الأمة. لكن هذا الحديث يدل على عظم ثواب العمرة في رمضان، قال ابن العربي ـ رحمه الله ـ «حديث العمرة هذا صحيح، وهو فضل من الله ونعمة، فقد أدركت العمرة منزلة الحج بانضمام رمضان إليها»[٢]. وقال ابن الجوزي: «فيه أن ثواب العمل يزيد بزيادة شرف الوقت، كما يزيد بحضور القلب، وبخلوص القصد»[٣]، وقد رد ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ على من ضيَّق موسعاً فقال إن هذا الفضل لعمرة رمضان كان خاصاً بتلك المرأة فقال: «الظاهر حمله على العموم»[٤].

إن هذا الإرشاد من النبي ﷺ بالاعتمار في رمضان، يأتي في سياق السباق المشروع في مضمار المسارعة للخيرات في شهر الصيام.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠١).
(٢) فتح الباري (٣/ ٦٠٤).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) فتح الباري (٣/ ٦٠٥).

* فتصور ـ أخي الصائم ـ أخي المعتمر ـ وأنت تؤدي شعائر تلك الحجة ـ أعني تلك العمرة ـ أنك تصاحب رسول الله ﷺ، فتفوز بأجر صحبته في حجته الوحيدة التي حجها . . . وتمثَّل نفسك في الحرم وأنت تطوف معه، وتسعىٰ وراءه وتصلي خلفه وتقف قريباً منه في الملتزم وتشرب من يده الشريفة شربة هنيئة من ماء زمزم، تؤهلك للشرب من ماء الكوثر.

* بل أكثر من ذلك ـ أخي الصائم المعتمر . . (وهل هناك أكثر من ذلك . . ؟!) نعم . . فإضافة إلىٰ حصولك بعمرة رمضان علىٰ ثواب الحج مع النبي ﷺ، فأنت بالاعتمار، في رمضان ـ وفي غير رمضان ـ، وافد الله تعالىٰ في بيته، وماذا ينتظر مَنْ وَفَد علىٰ الله في بيته وفي شهره الكريم . . ؟! لقد قال رسول الله ﷺ: (الحُجَّاج والعُمَّار وفد الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم)[1].

* إذا كان حرم رمضان الزماني تُضاعف فيه الدرجات إلىٰ أكثر من سبعمائة ضعف، فإن الحرم المكاني في مكة أو المدينة، تضاعف فيه الصلوات أضعافاً كثيرة، وقال النبي ﷺ: (صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه)[2]، فاغتنم هذه الفضائل المضاعفة، في زمان ومكان مضاعفة الفضائل.

* الإكثار من الاعتمار في رمضان وفي غير رمضان له فضله وأجره، فلا تستكثر في ذلك نفقة، ولا تخش من فاقة، فقد قال ﷺ: (تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكير خبث الحديد)[3].

* اجعل من عباداتك في رمضان ـ إذا رزقت زيارة البيت الحرام ـ الإكثار من

(١) أخرجه ابن ماجة (٢٨٨٣)، وقال الألباني في صحيح الترغيب: حسن لغيره (١١٠٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٣٩٦)، وأحمد (١٤١٦٧)، (١٤٧٣٣)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (٢٤٠٣).

الطواف بالبيت، فالطواف صلاة خاصة يجوز فيها الكلام، وتحط فيها الآثام مع الأقدام. وقد قال رسول الله ﷺ: (من طاف بهذا البيت أسبوعاً - يعني سبعاً - يحصيه، وصلى ركعتين كان كعتق رقبة، لا يضع قدماً ولا يرفع أخرى إلا حط الله عنه بها خطيئة، وكتب له بها حسنة)[١].

* استحباب المتابعة في العمرة لا يعني أن تؤدي كل يوم عمرة في رمضان، كما يفعل البعض، فإن هذا خلاف هدي النبي ﷺ، وهدي أصحابه من بعده، ففي تكرار الطواف كفاية وغناية عن تكرارالعمرة، للحديث السابق، ولأن الطواف نفسه صلاة، كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: (الطواف حول البيت صلاة، إلا أنكم تتكلمون فيه، فمن تكلم فيه فلا يتكلمن إلا بخير)[٢].

* تخصيص ليلة السابع والعشرين بعمرة، لا دليل عليه، والأولى بنا الانشغال في تلك الليلة بالصلاة والدعاء والتضرع، فليلة القدر يقترن فضلها بقيامها لا بالاعتمار فيها، فإذا ترك الناس ذلك وانشغلوا بالعمرة، يوشك الحرم ألا يسع الناس لتدافعهم من داخله وخارجه في تلك الليلة للاعتمار.

(ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم... آمين)

---

(١) أخرجه الترمذي (٨٨٢) وقال حديث حسن، وقال الألباني في صحيح الجامع (٦٣٨٠) صحيح لغيره.

(٢) أخرجه الترمذي (٨٨٣)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١١٠٢).

(٢٨)

توبتك في رمضان

من المعاني التي لأجلها سُمي شهر الصيام بشهر رمضان، أنه شهر ترتمض فيه الذنوب، أي تحترق، فرمضان مصدر رَمَضَ، أي احترق، ومنه: الرمضاء، وهي بقايا الحريق. قال القرطبي - رحمه الله - «قيل: إنما سمي رمضان لأنه يرمض الذنوب، أي يحرقها بالأعمال الصالحة»[١].

فشهر الصوم فيه تلك الخصوصية لذاته، فإن مجرد صيامه إيماناً واحتساباً يحرق الذنوب، لقوله ﷺ: (من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه)[٢]، ويزداد حرق الذنوب بقيام الشهر إيماناً واحتساباً لقوله ﷺ (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)[٣]، ويتأكد الإتيان على تلك الذنوب حرقاً بقيام ليلة القدر، لقوله ﷺ (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه)[٤].

ويلاحظ هنا: أن صيام رمضان وقيامه وقيام ليلة القدر، إنما جعل لمغفرة ماتقدم من الذنوب سوى الكبائر كما قال ﷺ: (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن ما اجتنبت الكبائر)[٥].

وإضافة إلي حرق الذنوب في رمضان مع الصيام والقيام، فبوسع المرء أن يوسِّع محرقة الذنوب، ليرمضها كلها، صغارها وكبارها وما تقدم منها وما تأخر باستيفائه لشروط التوبة النصوح من كل ذنب، استجابة لأمر الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٢٩١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) رواه مسلم (٢٣٣).

آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨] . وذلك بأن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم عما كان منه في الماضي، ويعزم على ألا يعود في المستقبل، مع رده المظالم إلى أصحابها، قال القرطبي في تفسير هذه الآية «التوبة النصوح، قيل: هي التي لا عودة بعدها، كما لا يعود اللبن إلى الضرع، وقال قتادة: النصوح الصادقة الناصحة، وقال الحسن: النصوح: أن يبغض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه إذا ذكره. . . . وقال سعيد بن جبير: هي التوبة المقبولة، ولا تقبل ما لم يكن فيها ثلاث شروط: خوف ألا تقبل، ورجاء أن تتقبل، وإدمان الطاعات»[١] .

* والتوبة النصوح يُحافَظ عليها بتكرار الاستغفار، وقد كان النبي ﷺ يكثر من الاستغفار ويقول: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)[٢] والاستغفار يحفظ أعمال الطاعة من الضياع وينقيها من النقائص، ولذلك جُعل ختاماً للأعمال الصالحة كلها، فتختم به الصلاة، والحج، وقيام الليل، وتختم به المجالس، فإن كانت ذِكراً كان كالطابع عليها، وإن كانت لغواً كان كفارة لها، وهكذا صيام رمضان ينبغي أن يختم بالاستغفار، وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار، يأمرهم بأن يختموا رمضان بالاستغفار والصدقة، فإن صدقة الفطر طُهرة للصائم من اللغو والرفث، والاستغفار يرقع ما تخرَّق من الصيام باللغو والرفث[٣] . وقد مرَّ أمر النبي ﷺ عائشة ـ رضي الله عنها ـ بسؤال العفو ليلة القدر، وطلب العفو استغفار.

إذا كنت ـ أخي الصائم ـ في أول الشهر، فابتدره بأوبة صادقة، وإن كنت في

---

(١) تفسير القرطبي (٢٨/ ١٦٨).
(٢) رواه البخاري (٥٨٣٢).
(٣)وظائف رمضان، ص ٧٩.

بقية منه فاغتنمها بتوبة نصوح تمسح عنك أوضار الذنوب وتمحو آثار العصيان، وإذا كان بعض الشهر قد فات، فلا يفوتنك الباقي منه، ولا تصرفنك الشواغل عنه، يقول ابن رجب ـ رحمه الله ـ، معاتباً من أضاع بعضاً من الشهر وهو في طريق إضاعة الباقي منه: «هذا شهر رمضان ما يزال فيه متسع، وفي بقيته للعابدين مستمتع، وهذا كتاب الله فيه يُتلىٰ ويُسمع، وهذا القرآن لو أنزل علىٰ جبل لرأيته خاشعاً يتصدع، ومع هذا فلا قلب يخشع، ولا عين تدمع، ولا صيام يصان فينفع، ولا قيام استقام فيرجىٰ أن يشفع، قلوب خلت من التقوىٰ فهي خراب بلقع، وتراكمت عليها الذنوب فهي لا تبصر ولا تسمع، كم يتلىٰ علينا القرآن وقلوبنا كالحجارة أو أشد قسوة؟ كم يتوالىٰ علينا شهر رمضان وحالنا فيه كحال أهل الشقوة؟ أين نحن من قوم إذا سمعوا داعي الله أجابوا، وإذا تليت عليهم آياته وجلت قلوبهم وأنابوا»(١). فلنختم رمضان بتوبة صدق علىٰ عدم العود إلىٰ العصيان بعد رمضان.

يقول يحيىٰ بن معاذ ـ رحمه الله ـ «ليس بعارف من لم يكن غاية أمله من الله العفو، من استغفر بلسانه وقلبه علىٰ المعصية معقود، وعزمه أن يرجع إلىٰ المعصية بعد الشهر ويعود، فصومه عليه مردود، وباب القبول في وجهه مسدود»(٢).

وقال كعب: «من صام رمضان وهو يحدِّث نفسه إذا أفطر بعد رمضان أن يعصي ربه، فصيامه عليه مردود، ومن صام وهو يحدِّث نفسه إذا أفطر بعد رمضان ألا يعصي الله، دخل الجنة بلا حساب ولا مسألة»(٣).

إن رمضان يأتي ومعه مفاتيح الغفران، فمن تسلمها منه، أقبل علىٰ رب

(١) وظائف رمضان، ص ٥١.
(٢) المصدر نفسه، ص ٨٠.
(٣) المصدر نفسه، ص ٨١.

غفور، ومن أعرض عنها، فهو مغبون مخفور، مفرِّط في حق نفسه إذ حرمها من نفحات العفو الإلهي المعروضة في شهر المغفرة، قال ﷺ (رَغِم أنف من أدركه رمضان فلم يغفر له)[1]. فهذا دعاء منه ﷺ علىٰ من فرَّط في اغتنام كل تلك الفرص المهيأة في شهر الصيام، فلقد أعذر الله لعبد أشهده رمضان، فكيف يدخل فيه ثم يخرج منه دون أن يتوب. إن الشياطين سلسلت فيه، وخمدت نيران الشهوات بالصيام، و انعزل الهوىٰ، وصارت الدولة لحاكم العقل، ولم يبق للعاصي عذر، فأي عذر لعبد شهد شهراً أوله رحمة وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار، أي عذر لتارك الطاعة في شهر الطاعة، الذي تعدل الطاعة في إحدىٰ لياليه طاعة ألف شهر، أي عذر للعصاة في شهر يقال فيه يا باغي الخير أقبِل، ويا باغي الشر أقصِر. . . ؟! إنها الغفلة بغيومها والذنوب بثقلها، والتسويف بآثاره وآصاره، وطول الأمل بأوضاره وأضراره، فاللهم سلِّم سلِّم.

(اللهم تب علينا توبة ترضيك،وباعد بيننا وبين معاصيك وارزقنا توبة نصوحاً تصلح بها أحوالنا، وتكون خاتمة حسنة لأعمارنا ... آمين)

---

(١) أخرجه أحمد (٧٤٠٢) و الترمذي (٣٥٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب، (١٦٨٠).

(٢٩)

وداعك رمضان

عندما يصل رمضان إلىٰ نهايته، يكون قد أوصل العظة والذكرىٰ إلىٰ قلوب المؤمنين، فذلك الشهر الذي هو قطعة من أعمارنا، سينتهي العمر كله كما انتهىٰ، وعندها. . . سيفرح أقوام وسيندم آخرون، ولات حين مندم، فأما الفرحون في آخر رمضان، أو في آخر الأجل، فهم الذين فازوا بجائزة الرضوان من الرب الرحمن، ولنكبِّر صورة رمضان المنقضي لتماثل صورة عمر الإنسان المنصرم، فمن قام فيه بواجباته واستغل أوقاته، ورعىٰ الحرمات وجاهد في اكتساب الطاعات؟! فهو الفائز الحائز علىٰ الجوائز، ففي الأثر عن أبي جعفر، محمد بن علي مرفوعاً قال: «من أدرك رمضان صحيحاً مسلماً، فصام نهاره وصلىٰ ورداً من ليله، وغضَّ بصره، وحفظ فرجه ولسانه ويده، وحافظ علىٰ صلاته في الجماعة، وبكَّر إلىٰ الجمعة، فقد صام الشهر واستكمل الأجر وأدرك ليلة القدر، وفاز بجائزة الرب»(١).

وحُقَّ لمثل هذا أن يفرح في شهره، ويحمد الله علىٰ ما مرَّ من عمره في فعل الطاعات وترك المخالفات، وهذا الحمد والشكر نفسه طاعة وامتثال لأمر الله عندما أمر بالتكبير في آخر الشهر عند رؤية هلال شوال، فالمغفرة والعتق من النار كل منهما مرتب علىٰ صيام رمضان وقيامه، ولذلك أمر الله ـ سبحانه ـ عند إكمال العدة بتكبيره وشكره فقال: ﴿**وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [**البقرة**: ١٨٥]، فشكر من أنعم علىٰ عباده بتوفيقهم للصيام والقيام وإعانتهم عليه، ومغفرته لهم وعتقهم من النار، أن يذكروه وبعبدوه ويتقوه حق تقاته، فالشكر هنا فرح وعيد، بسبب إتمام الشهر والتوفيق للطاعة فيه، وهو

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا (٢/ ٨٧).

امتنان للرحمن بجعل عبادات المسلمين على الإحكام وعصمة التنزيل، غير قابلة للتغيير والتبديل، قال القرطبي ـ رحمه الله ـ ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]. «هداكم لما ضل فيه النصارىٰ من تبديل صيامهم»(١).

إن من صام رمضان إيماناً واحتساباً، وكذلك من قامه، ومن قام ليلة القدر فيه قد وُعد علىٰ لسان رسول الله ﷺ بأن يُغفر له ما تقدم من ذنبه مما هو دون الكبائر، وجائزته هذه لا يمكن الاستهانة بها، فالصغائر بكثرتها تزاحم الكبائر في خطورتها، وقد قال النبي ﷺ: (إياكم ومحقَّرات الذنوب، فإنهن يجتمعن علىٰ المرء حتىٰ يهلكنه)(٢). وقال لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: (إياك ومحقَّرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً)(٣).

ولكن الكبائر هي الكبائر، فهي لا تغفر إلا بتوبة أوعفو، وهنا يجيء فضل العتق من النار، الذي يمتن الله به علىٰ العتقاء السعداء الذين ينالون الجائزة الكبرىٰ آخر رمضان. إن هذا العتق يشمل الكبائر، فمن نال العتق فهو صاحب العيد، ومن حُرمه ففي الخسران الشديد. وهذا العتق والغفران هو أعظم حِكَم العيدين في الإسلام، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء، حيث يختار من يختار، ليمنحهم براءة من النار، قال ابن رجب: «وإنما كان يوم الفطر من رمضان عيداً لجميع الأمة، لأنه يعتق فيه أهل الكبائر من الصائمين من النار، فيلتحق فيه المذنبون بالأبرار، كما أن يوم النحر هو العيد الأكبر، لأن قبله يوم عرفه، وهو اليوم الذي لا يُرىٰ في يوم من أيام الدنيا أكثر عتقاً من النار فيه، فمن أُعتق في

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ١٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٢٧)، وصححه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٧٠).

(٣) رواه ابن ماجه (٤٢٣٣)، وأحمد (٢٣٢٧٩)، (٢٤٠٢٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٣١).

اليومين فله يوم عيد»(١).

روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه: (إذا كان يوم الفطر، هبطت الملائكة إلى الأرض، فيقفون على أفواه السكك ينادون بصوت يسمعه من خلق الله إلا الجن والإنس، يقولون: يا أمة محمد، أخرجوا إلى رب كريم، يعطي الجزيل ويغفر الذنب العظيم، فإذا برزوا إلى مصلاهم يقول الله - عز وجل - لملائكته: ما جزاء الأجير إذا عمل عمله، يقولون: إلهنا وسيدنا: أن يوفَّى أجره، فيقول: إني أشهدكم أني جعلت ثوابهم من صيامهم وقيامهم رضائي ومغفرتي، ارجعوا مغفوراً لكم)، زاد البيهقي: (يُقول: يا عبادي: فوعزتي وجلالي، لا تسألوني اليوم شيئاً في جمعكم لآخرتكم إلا أعطيتكم، ولا لدنياكم إلا نظرت لكم)(٢).

لا تضيِّع - أخي الصائم - أجور الشهر، ولا تفوِّت ثمرة فرصه العمر، وأتم فرحك بعد ذهاب شهرك بإتمام صيام دهرك كله، وذلك بأن تصوم ستاً من شوال بعد رمضان، فهذا ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ عندما قال: (من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر)(٣)، فكل صيام لرمضان تُتْبعه بست من شوال، فهولك صيام سَنة، فتمضي سنوات التكليف في عمرك كله وأنت في حكم الصائمين، وكأنك تواصل سِني عمرك في أجر الصيام، بصيام الست من شوال.

كل هذا لمن ودع الشهر فرحاً سعيداً بقدوم يوم المغفرة والمرحمة في العيد، أما المحزون المكروب المبتلى بإضاعة شهر الطاعة؛ فهذا حقه الاسترجاع، على ما

(١) وظائف رمضان، ص ٧٧.
(٢) رواه البيهقي وسلمة بن شبيب، ومثل هذا في حال ثبوته عن قائله يكون في حكم المرفوع، لأن مثله لا يقال من قبل الرأي.
(٣) أخرجه مسلم (١٩٨٤).

فات وضاع، وليكن حزنه وأسفه توبة يودع بها الشهر الكريم الذي لم يحسن ضيافته. عن الحسن قال: «إن الله جعل رمضان مضماراً لخلقه، يستبقون فيه إلى مرضاته، فسبق قوم ففازوا، وتخلف آخرون فخابوا، فالعجب من اللاعب الضاحك في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر المبطلون»[(١)].

في آخر الشهر - ياليت شعري - من المقبول فتقدم له التهاني، ومن المحروم فتقدم له التعازي؟! أيها المقبول هنيئاً لك.. أيها المحروم جبر الله كسرك.

حزننا على ذهاب الشهر - أخي الكريم - لا يقترن ضرورة بالخوف من الحرمان أو الخسران، فحتى الفائزون يحزنون على فوات الأيام المعدودات من شهر النفحات، وهو حزن يستجلبون به الأمل والرجاء، لأنه يبعث الشوق إلى مرضاة الله والندم على ما فَرَط في جنب الله، فشأن المؤمن أن يلازمه الوجل، مهما قدَّم من طاعة وعمل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠ - ٦١].

تُنادى للترَّحل كل يوم ... ولا تصغ إلى الداع القريب

كأن يقيننا بالموت شك ... ويُلغى الحق بالإفك المريب

فياربَاه عفواً منك والطف ... بفضلك للمحيَّر والكئيب

(اللهم أعد علينا رمضان أعواماً عديدة ونحن طائعين لك، وسنوات مديدة ونحن مرضيين عندك، وتقبل منا الصلاة والصيام وتلاوة القرآن... آمين)

(١) وظائف رمضان، ص ٧٤.

(٣٠)
عهدك بعد رمضان

نعمة سابغة، ورحمة واسعة، أن تخرج من رمضان مغفوراً لك، فحافظ على تلك النعمة، ولا تبدلها نقمة بالعودة إلى العصيان بعد وداع رمضان.

«يامن أعتقه مولاه من النار، إياك أن تعود بعد أن صرت حراً إلى رق الأوزار، أيبعدك مولاك عن النار، وأنت تقرب منها؟ وينقذك منها وتوقع نفسك فيها؟!.. إن كانت الرحمة للمحسنين، فالمسيء لا ييأس منها، وإن تكن المغفرة للمتقين فالظالم غير محجوب عنها»[1].

والآن وقد حان وقت الانتهاء من الوقفات مع روح الصيام ومعانيه، فهذه وقفات مع آخر الوقفات:

* بمثل ما استقبلت به رمضان (استقبال المودعين) بالطاعة، فودعه وداع المستقبلين للشهور التي تتلوه بالطاعة، فكلها أيام الله، ونحتاج لإعمارها بما عمَّرنا به شهر الصيام، وتعظيم الله فيها كما عظمناه في رمضان.

* صُمت أيام الشهر إيماناً واحتساباً، وقمت لياليه وليلة القدر إيماناً واحتساباً - هكذا نظنك - وهذا الإيمان والاحتساب شرط في كل عبادة وفي أي لحظة: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾ [البينة: ٥]، فاجعل صيامك تطوعاً بعد رمضان إيماناً واحتساباً، وقيامك بعده إيماناً واحتساباً، وطلبك للعلم وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر وصبرك وحسبتك وجهادك، ونفقتك وكل عملك وطاعتك إيماناً واحتساباً، فالاحتساب هو لبُ الإخلاص وروح القربات، فهو فريضة الدهر، لا مناسبة الشهر.

---

(١) وظائف رمضان، ص ٧٧.

* إن كنت صمت الشهر كله، فذلك من فضل الله عليك وإحسانه إليك، بأن أمدك بالعافية والصحة. وقدرتك على صيام شهر متواصل؛ هي دليل على قدرتك بعده على التواصل بالنوافل، فأكثر منها في أوقاتها المستحبة[١]، فإن النوافل تكمِّل النواقص في الفرائض أولاً، ثم ترفع لك الدرجات وتمحو عنك السيئات ثانياً، فأتبع السيئة الحسنة تمحها، وانتقل بالنوافل من درجة المقتصدين المحبين القائمين بالفرائض، إلى درجة السابقين المحبوبين المسارعين في النوافل (ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه)[٢].

* كان الصوم جُنَّة لك في رمضان من أعدائك، وكنت في حصن الصوم الحصين، وترسه المتين (كجُنَّة أحدكم من القتال)[٣] وأنت مازلت محاطاً بالأعداء من الإنس والجن من كل جانب، بل ومن شيطانك وهواك ونفسك التي بين جنبيك، فهل تأمن على نفسك من الأعادي لو غادرت حصن الصيام بقية شهور العام. . . ؟

* حافظت على الصلاة بخشوعها، وأتممت - فيما نظن - سجودها وركوعها مع المسلمين، وتلك الصلاة قد شُرعت إقامتها لذكر الله ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ﴾ [طه: ١٤]، فهلاً أبقيت على ذِكرك لله في كل أيام الله، فإقامة الصلاة وإتمامها، ليس موقوتاً بالصيام، بل الصلاة التامة عمود الإسلام طيلة العام ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا** ﴾ [النساء: ١٠٣].

* قيامك طوال الشهر في الصلاة مع الإمام مهما استرسل وأطال، حجة عليك بأن لك القدرة على طول القيام، فلا تقصر فيه سائر العام، خذ بنصيب من ذاك القيام بعد شهر الصيام، فهو (شرف المؤمن)[٤]، فلا تفرط في شرفك بقية العام.

---

(١) كصيام يومي الاثنين والخميس وصيام الثلاث البيض، ويوم عاشوراء، ويوم عرفة، وصيام ستة من أيام من شوال، ويوم السبت ويوم الأحد لمخالفة اليهود والنصارى.

(٢) رواه البخاري (٦٠٢١).

(٣) سبق تخريجه وتكملته (الصيام جنة كجنة أحدكم من القتال).

(٤) كما في الحديث (واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل) وقد سبق تخريجه.

* ختمت القرآن مرة، أو بعض مرة، أو أكثر من مرة في رمضان، وهذا إنصاف لنفسك من الوقوع في هجران القرآن، فإذ عزفت عن الشواغل والصوارف حتىٰ أنجزت هذا. . هلاَّ عزمت علىٰ صرفها عنك مرات أخر للإكثار من (تحزيب القرآن) في سائر الأيام؟!

* حافظت بقدر استطاعتك علىٰ قلبك وعقلك، فصمت بهم عن غوائل الهوىٰ النزاعة للشوىٰ، وصنت سمعك وبصرك وفؤادك عن الحرام في شهر الصيام، لكن صيام تلك الجوارح عن الحرام لا نهاية له بغروب شمس أو بهلال عيد، فصيام السمع والبصر والفؤاد عن الحرام شريعة الله في سائر العام: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، فأنت لا تساءل عنهم فقط في أيام الصيام بل ما بقي في عمرك من عقود أو أعوام أو أيام.

* تخلَّقت بأخلاق الإسلام في رمضان، وكنت تقول لمن سابك أو شاتمك (إني امرؤ صائم)[1]، فأمسكت لسانك في أيام الشهر الكريم، ولم تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء، فهلَّا علَّمك الصيام أن ذلك الإمساك هو مِلاك الأخلاق في سائر الأيام، وأن حسن الأخلاق هو أثقل شيء في الموازين[2]، ودليل الكمال في إيمان المؤمنين[3]؟!

* أرحامك. . إخوانك. . . جيرانك. . أهل بيتك: أحييت صلتهم في رمضان، فلا تعدهم في الموتىٰ بعد رمضان، فالصيام يحيي قلبك في الشهر الفضيل لوصلهم، ليظل الوصال حياً سائر الأيام.

* كنت في شهرك جواداً كريماً، لأن الشهر الكريم علَّمك الكرم، ولكن ربك

---

(١) جزء من حديث سبق تخريجه.

(٢) الحديث (ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن) رواه الترمذي (١٩٢٥) وقال حسن صحيح.

(٣) لقوله ﷺ: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) وقد سبق تخريجه. .

الحي الذي لا يموت هو الغني الأكرم، الجواد الأعظم، فعامل عباده بما تحب أن يعاملك به من الجود والكرم، فعساه أن يجود عليك بنعيم الجنان ويرحمك من لهيب النيران.

* عهدناك حياً حيِّياًفي شهر الصيام، فخذ على نفسك العهد أن تبقى على عهد الحياة والحياء بعد شهر الصيام، فعسى أن يكون هذا العهد توبة من الله عليك، وتوفيقاً وذخراً لديك، فإذا أبرمت ذلك العهد فإياك والنكث: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]، واحذر أن تكون بنقض العهد ربع منافق، فخصال المنافقين الأربع، إحداهن نقض العهود، وهو أقبح الأنواع وأسوأ الضروب التي ذُكر بها المنافقون في القرآن: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨]، ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١]، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٦]. فماذا كانت عاقبة ذلك النكث..؟ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧].

* عاهد الله بالمحافظة على الطاعات، وأنت في نهاية موسم الطاعات فقد كان نبيك ﷺ يعاهد الله على الطاعة في كل ساعة قبيل الليل وأول النهار، فيقول في دعائه المسمى (سيد الاستغفار): (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذك بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)[١].

(سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد ألا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك)

---

(١) رواه البخاري (٥٨٣١)، (٥٨٤٨).

فهرس الموضوعات

الموضـــوع الصفحـــة

الموضـــوع	الصفحـــة